

كتب ثقافية



حاجة المجتمع إلى الدين

بقلم
فضيلة الأستاذ
محمد أحمد فرج السنهوري



0198197

Bibliotheca Alexandrina

كتب ثقافية

المستاد الدكتور
عبد العزيز بن
عبد الرحمن بن
عبد الرحمن بن
عبد الرحمن بن
عبد الرحمن بن

حاجة المجتمع إلى الدين
لفضيلة الشيخ محمد أحمد فرج السهري

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه فصول تنظر في المجتمعات وحاجتها إلى الدين كي يستقيم أمرها وتنال استقرارها النفسى والاجتماعى والاقتصادى .

وفي الوقت نفسه تبين عجز الوسائل الأخرى عن تحقيق هذا الاستقرار للمجتمع .

ثم تتناول منهج الإسلام في تحقيق هذه الغاية وتعرض جانباً من المعاملات التى يحتاج إليها الناس في مجتمعاتهم على ضوء ما رسم الإسلام الحنيف وتنتهى ببيان جانب من الروابط الانسانية التى تحتاج إليها المجتمعات السعيدة ومنهج الإسلام في بثها في النفوس واعتناق الناس لها .

وجاءت هذه الدراسة في أربعة فصول :

الأول ... عن حاجة المجتمع إلى الدين .

الثانى ... المنهج الإسلامى .

الثالث ... المعاملات الإسلامية .

الرابع ... الروابط الانسانية في الإسلام .

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز بن عبد
الحسين بن عبد
المجيد بن عبد
المجيد بن عبد
المجيد بن عبد

الفصل الأول

—

تقديم

تمهيد :

قال الله جل قدره وعظمت قدرته : (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) وقال جلت حكمته (يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما بعتنا فأنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبتلنوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) . وروى البخارى ومسلم فى الصحيحين أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق الصدوق : أن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

هكذا تكون نشأة الإنسان وحياته ومعاده كما وصف الكتاب الكريم وحدثت السنة النبوية ، مادة وقوة ، جسم وروح ، كائن حى ظفر بحياته من امتزاج هذين العنصرين تمام الامتزاج ، لا عمل لواحد منها إلا بموثة الآخر ،

وليس له شان يذكر بدون صاحبه . ويتدرج هذا الكائن من الضعف والطفولة إلى الشباب والقوة حتى يبلغ أشده ، ثم ينحدر إلى الغيب ، إلى الضعف والشيخوخة والانهلال وتفرق عنصريه ثم تكون النشأة الأخرى ، البعث والنشور وحياة الخلود ، وحياته الأولى حياة اختبار وابتلاء ، له فيها أعمال الخير وأعمال الشر ، وله فيها أسباب السعادة وأسباب الشقاوة في كل من أولاده وأخراه . وله في حياته الأخرى جزاء أعماله وما قنمت يداه ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

والعنصر المادى محس مبصر ، أدرك الناس حقيقته ، وغرقوا أمر ظاهره وباطنه ، ووقفوا على الأعم الأكثر من خصائصه وظوائفه . أما الروح فهى قبس من عند الله ، لا يعرف أحد حقيقتها ، ولا يدرك شكلها وصورتها ، ولا يعلم أين مستقرها ولا طبيعة امتزاجها بالعنصر المادى ، فكل ذلك من الأسرار الكونية التى استأثر الله سبحانه بعلمها (ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وقد خاض الناس في هذا الشأن قديماً وحديثاً فما جاءوا فيه إلا بأوهام وتخيلات لا ساق لها ولا قدم . ولا خير علينا إن جهلنا ذلك لا فى معاشنا ولا فى معادنا ، وكل الذى علينا هو أن نؤمن فى النظر ، ونستقصى فى البحث ونحسن المراقبة ، لنقف على ما لكل من العنصرين وما يطرأ عليه من الصفات وما يحتاج إليه من نمو وقوة ، وما له من التزعات والتزوات ، وما يصيبه من الآفات ، ولنعرف مدى ما بين هذين العنصرين من الامتزاج ، ومبلغ ما بينهما من تعاون ، ومقدار خضوع كل منهما لصاحبه وتأثره بما عليه عليه ويدفعه إليه وما عساه أن ينشأ بينهما من صراع تثيره العوامل المختلفة خارجية كانت أو داخلية علينا أن نراقب كل هذا وأن تدبر أمره حتى يتيسر لنا أن نسلك بالنفس البشرية مسلك القصد والاعتدال ، وأن نربها منذ أن تبدأ نشأتها على الفضائل وأن نوجهها وجهة الخير ونمودها أعماله ، ونباعد بينها وبين اتجاهات الشرور وسلوك سبلها لكي ينظر المجتمع الإنسانى بأكبر قسط مستطاع من السعادة فى هذه الدنيا وفى الدار الآخرة . وعلم هذه المسائل وما يتصل بها واسع الأرجاء بيد القون متشعب المسالك خاض فيه السابقون واللاحقون وتماولته علوم مختلفة ، وليس يمتنى

من كل هذا إلا الإشارة إلى طرف يسير جداً من الحقائق المشاهدة لتكون بمثابة فائدة لهذا الموضوع حاجة المجتمع إلى الدين .

لا ريب في أن الناصر الروحي يكون ملائماً للنصر المادي عند بدء امتزاجهما ثم يسايره في جميع أطواره ، فهو ينمو ويتدرج مثله في استكمال قوة وسائر صفاته حتى إذا بدأ كلهما اجتمعت له قوى ثلاث ، القوة المادية المستنجة ، والقوة الحساسة الحركية والقوة الماقلة المفكرة ، المدبرة المتبصرة ، والقوة الأخيرة هي أفضل ما منح الإنسان وبها يمتاز عن سائر الحيوان ، وبها يتمكن من تسخيرها حوله لمنافعه .

والناصر الروحي يستمد هذه القوة من استمداده الفطري ، وما يفيد من كل ما هو محيط به ، وإذا انحرف في هذه الإفادة عن الصراط المستقيم كانت له أسراض وآفات كما تكون للناصر المادي آفات إذا انحرف ، فكل من الناصرين في حاجة إلى الترية والتعهد في رعاية وحذر ، بل الناصر الروحي أحوج ما يكون إلى الرعاية والحذر ، وإلى هذا يشير قوله عليه الصلاة والسلام ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن .

ولكل من الناصرين غذاؤه ومطالبه ، ولكل منهما آلامه ولذائمه ، وكثيراً ما يتطلب الناصر المادي بقوة أن العالم حالمه ، وأن البيئة يثته ، وأن الناصر الروحي طارئة مفترية ، وقد يتطلب الناصر الروحي بقوة مصدره ومجوده وغلبة هذا أو ذاك إلى درجة الجور قد تقضى إلى مصائب الآخر وكوارثه فوضعهما أحوج ما يكون إلى ما يحفظ التوازن بينهما ويسلك بهما سبيل القصد والاعتدال ، وفي هذا وحده خير المجتمع الإنساني .

والأرواح كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، وللتناكر أسبابه الكثيرة وللإختلاف شروطه المتكاثرة ، وعواقبه الاجتماعية الوخيمة ، فأى مجتمع إنسانى أجوج ما يكون إلى تربية النفوس وتهذيبها وحفظ التوازن بين عنصرى الإنسان ، وما يكفل القضاء على مفاسد التناكر والإختلاف ، وسرى إن شاء الله أن المنهج الإسلامى في تربية الضمير الروحى والوازع الدينى خير سبيل للوصول إلى هذه الأهداف .

الانسان بين الخير والشر

الباحثون والمفكرون منذ القدم على طرائق شتى فيما يرجع إلى طبائع الانسان وغرائزه وإلى ما يمكن أن يطرأ عليها ، فمن قائل إن الانسان خلق خيراً بطبعه أما الشر فطارئ عليه ، لا فرق في هذا بين إنسان وآخر . ومن قائل إن الانسان خلق شريعاً بطبعه ، أما الخير فطارئ عليه ، لا فرق في هذا بين انسان وآخر . ومن قائل إن الناس ليسوا سواء في هذا ، فمنهم من خلق بطبعه ، ومنهم من خلق شريعاً بغيرته ، والكثرة الساحقة من هؤلاء الباحثين قد اتفقوا ، مع اختلاف مذاهبهم ، على أن ما يكون عليه الإنسان من خير أو شر من الأمور التي تقبل التغيير والتبديل وشئت شرذمة قليلة فخرجوا على إجماع المفكرين وذهبوا إلى أن الإرادة الانسانية سجيئة في نطاق حديدي من الغرائز والطبائع التي لا تقبل تحويلاً ولا تطوراً . وقالوا إن خلق الانسان كخلقه ، فكما لا يمكن للإنسان تحويل خلقه من الطول إلى القصر ، ومن الدمامة إلى الوسامة ، وغير ذلك من الصفات الظاهرة ، لا يمكنه أن يحول فطرته النفسية ولا طبيعته الباطنة التي جاء بها إلى هذا العالم عند ولادته ، إذ لا فرق بين فطرة وفطرة ، فكلاماً من صنع الله الذي لا تبديل لخلقهِ . كما قالوا أنه لا فائدة ترجى من وراء أعمال التأديب والتربية والتهديب ، وإن كثيراً من أهل المجاهدة والرياضة قد حاولوا أن يحطموا في أنفسهم قوى الشهوة والشرور ، وأن يمتثلوا فيها نزوات الرذائل ، وأن يسكنوا غرائز الأمل والألم فباءوا بالفشل . وهؤلاء الشذاذ هم الذين يقول عنهم الاخلاقيون إنهم غلاة الجبرية وإنهم هم الجامدون المتشائمون ، كما يسميهم الإمام الغزالي أهل البطالة والكسل .

وما ورد في الكتاب الكريم وفي السنة النبوية الصحيحة ، وما استنبطه
الائمة المحققون يهديننا إلى الطريقة المستقيمة ، ويوجها التوجيه الصحيح . وهو
أن الانسان قد ركبهُ الله جلّت حكمته من عنصريه ، الروح والمادة . فالنصر
الروحي هو الروح أى النفس الانسانية ، النفس الناطقة العاقلة المفكرة المتخيلة
ذات الأحاسيس والمشاعر ، وهى لطيفة ربابية من أمر الله سبحانه ، أى من عالم
الأمر ، عالم الملائكة الأعلى ، عالم الكمال ، والعنصر المادى وإن كان للنصر الروحي
كاللواء وكالألة فى يد العامل له خصائصه ومميزاته ، وله حاجته ومطالبه التى يوحى
بها إلى الروح وله إغراؤه ، والروح متى اتصلت بالمادة حجبها عن عالمها وانسبست
إليها وتشتت لذائذها ، واستجابت لما توحى به ، وأصبحت فى عالمها الجديد
بين أمرين ، طيب عنصرها وفطرتها ، والإيحاءات التى تتلقاها من مستقرها
ومتودعها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالروح حين تنفخ فى الجسد
لم يخلقها الله سبحانه الخلق الكامل المستجمع لكل أطوارها ، كما لم يخلقها
جل شأنه جامدة ضعيفة غير قابلة للنمو والمقاومة ، بل خلقها وليدة تسير فى
نموها وبلوغ أشدها نحو البدن وتدرجه فى القوة ، منطقية على كل إمكانيات
الكمال ، وقابلة بفطرتها وحكم العالم الذى انتقلت إليه كما يشاء الله من درجات
الترقى أو درجات التدى والانعطاط ، فهى منذ البداية أحوج ما تكون إلى
التعهد والتربية ، والتأديب والتهديب ، لا تستغنى عن ذلك فى أى طور من
أطوارها فإذا نالت حظها الأول فى من ذلك كانت النفس المطمئنة الراضية ، وإن
لحقها بعض الإهمال خلطت عملا صالحا وآخر سيئا وكانت النفس اللوامة ، وإن
أهملت إهمالا تاما ران على القلوب ما اكتسبت وتركت طبقات الصدأ على النفس
فكانت النفس الأمارة بالسوء ومن تدبر هذا ووطأ وتنوقه وفهمه وانحأ فى
قوله تعالى : لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم — وقوله جل قدره : « فطرة
الله التى فطر الناس عليها » — وقوله تعالى : « ونفس وما سواها
فألهمها فجورها وقورها قد أفلح من زكاهَا وقد خاب من دساها » ، « إنا
هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » — « وهديناه للتجدين فلا اقتحم

العقبة « — وجاهدوا في الله حق جهاده « — « والذين جاهدوا. فينا
تهدينهم سبلنا » — « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة
شراً يره » — وقوله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه
أو ينصرانه أو يمجسانه » — وقال ﷺ للأشج المنذر بن عابد : « إن فيك
لخصتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » . قال يا رسول الله قديماً كانا
في أم حديد ؟ قال : قديماً . قال : الحمد لله الذي جعلني على خلتين يحبهما الله
ورسوله . وكان ﷺ يقول في دعائه : اللهم كما جعلت خلقي فحسن خلقي
ويقول : واحسن لي الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت .

فالفن الإنسانية إبان اتصالها بالجسد في حاجة إلى التربية والتأديب والتهديب
والهداية ، وهي قابلة للترقى في معارج الخير حتى تبلغ درجة الاشراق والقرب
من عالمها الأعلى ، كما أنها قابلة للتولى والانتكاس حتى تصل إلى حضيض شر
الدواب ، في أحوال ما تكون إلى تربية القوى التي يقوم على حراستها ويكفل
لها الهداية والسير في طريق الخير والأعمال الصالحة لها نفسها وللمجتمع الذي
المجتمع الذي تعيش فيه وكلما ازدادت قوة الوازع كان أبلغ أثراً وأعظم ففعلاً .
وهو إنما يستمد قوته من مصدره ومن منهجه ومن الآثار التي تنجم عن أتباعه
أو عن مخالفته . ومن الناس من يستمد على الوازع الخلقى ، وازع الآداب
والمعادات والتقاليد . ومنهم من يقول على الوازع العقلى وحده ويرى فيه الكفاية
ومنهم من يتجه إلى الوازع اللغوى ، الوازع الذى يخلق قانون الجريمة والعقاب
الوضعى . وهناك الوازع الدينى الوازع الإلهى المستمد مما شرعه الله سبحانه
لمبادء وسنه العليم الخبير لهدايتهم . ومتى نظرنا إليها جميعاً النظرة الصادقة ،
ووازاننا بينها في إنصاف وفى غير تحيز ، وجدنا أن وازع الدين الساوى هو
أشد قوة ، وأكملها منهجاً ، وأوسعها دائرة ، وأعظمها ملازمة للتفوسن
وفطرتها لا تشوبه شائبة من عيوب الوازعات الأخرى ، كما سنفصل هذا
إن شاء الله . ولهذا لم يترك الله جل جلالته عباده سدى ، لم يكلمهم إلى عقولهم

وما تهوى ، ولم يسلمهم إلى ما ترممه آدابهم وتقاليدهم وطوائفهم ، وقضى أنه
لا حكم الا لله وحده ، وشرع الأحكام ما فيه تركية نفوسهم وتطهيرها ، ويكفل
لهم الخير الكامل في معاشهم وفي معادهم وسبب لهم مكارم الأخلاق ، وحيد
الآداب والعادات ، وأرسل إليهم رسله يبلغين لرسالات ربهم ، هداة إلى الحق
وإلى سواء السبيل ، مبشرين ومنذرين ، حتى لا يكون للناس على الله حجة
بعد الرسل .

ضعف الوازع الخلقى

لا مرأى فيما للوازع الخلقى فى المسكنة ، ولا فى الأثر الجليل للضمير النفسى الذى تخلفه المادات والتقاليد وآداب السلوك المستقيم ، غير أنهما وحدهما لا غناء فهما ، وليس فى مقدورهما أن يفيا للمجتمع الإنسانى بما يحتاج إليه ولا أن يكفلا له الحياة المستقيمة الجامعة التى يصبو إليها ، فإلى العادات والآداب الولىدة الاقليم والنساج والتاريخ والجنس والوراثة ، ولذا جاءت الفضائل والردائل فى الأقاليم المختلفة على تضارب وتماقض بين ، هذا إلى أن العادات وآداب السلوك فى الاقليم الواحد متأرجحة وغير ثابتة ، فكل عصر يخلق عاداته وكل حضارة تخلق آدابها وإذا كان عطاء الاخلاقيين ومثقى النفوس ترمى مجهوداتهم على الدوام إلى سلامة النفس وإلباسها حلة بهية من القوة والصحة والصفاء ، وإلى التنفب على كل ما يصيبها من الآفات والضعف والشوائب فإنهم كانوا فى ذلك على طرائق شتى وخاؤنا بنماذج أخلاقية متباينة ومتضاربة ائترع كل منهم ما ائترعه من المثلل التى تصورهما ، ومن المذهب الذى ابتكره ، أو من المذهب القديم الذى حمد إلى تجديده ولقد حاول الأخلاقىون فى المصور الحديثة أن يئشخوا عن قاتون ثابت للعادات والآداب يربط الانسانية فلم يجدوه ولم يكن عجباً إلا يمجدوه وإنما كان عجبا أن يئشثلوا بالبحث عنه .

لقد دفعت إنجلترا بأساليبها الخفية المعروفة عصة الأمم إلى السعى لئمل المجتمع الإنسانى المتحضر على ائتهاج ما عليه الإنجلئز من العادات والآداب ، والحياة الاجئاعية والسياسية والاقتصادية ، ولكن مساعها باء بالفشل وبقت العادات والآداب كما كانت وبقت قوانين الفئضيلة والرزئزة التى تقوم عليها متضاربة ومومتاقضة ، ومتأرجحة غير ثابتة حتى فى الفضائل التى نالت احتراماً

طالياً ، فثانون الفضيلة يحرم على المرء ان يقتل نفسه ، ولكن لا يزال من الشعوب من تعفي آدابها على أتباعها أن تكون لديهم الشهادة لقتل أنفسهم ومن أعرض عن هذا كان في قة الرذيلة ، فإذا كانت السرة رذيلة عند الأمم المتحضرة فهناك شعوب لا ترى فيها رذيلة على أنه توجد عند الأمم المتحضرة صور وتحترم فيها القصص القانونية الذين تعترف بهم القوانين والآداب معاً .. وهكذا الشأن في القتل وفي الكذب وفي ارتكاب الفاحشة وفي الأخذ بالثأر ، وفي تصد الزوجات ، وفي تصد الأزواج للمرأة الواحدة وفي كثير غيرها فلا غرابة إذا كان هذا أقوى ممكن لضف الوزع الخلق وما ينشأ عنه من الضمير الروحي .

ثم يأتي بعد ذلك عامل آخر من عوامل ضعفه هو ضعف منفعة ، فليس للآداب والعادات في كل أمه منعة تحميها إلا سخط الرأي العام فيها واستنكاره لانتهاك حرمتها .. وكثيراً ما يصاب المجتمع بالفتور والتهاون ويقعد عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا تعبد العادات والآداب لها نصيراً ، وكثمن قرية كان أهلها لا يتناهون عن منكر فعلوه ويأتون المنكر في نواديهم فكانوا موضع سخط الله وبقته ، وليس مما ينبغي تسلط القادة والسادة والكبراء المفسدين وعيهم بهذه المراقبة ، وإلى هذا يشير قوله (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) وقوله جل شأنه على لسان أهل النار (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . . ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والمنهم لنا كبيراً .

ومن أسوأ العوامل في هذا السبيل ما يصيب الأمم من عدوى الرذائل التي تنتقل إليها من الرافدات التي تصمد إليها ويعمل دعاة السوء على اللود عنها والاتصار لها فيقتلون في الأمة روح الرقابة على آدابها وعاداتها وما ورثته من مكارم الأخلاق .

ولقد فطن المستعمرون الغربيون إلى هذه الوسائل واستعملوها على أوسع نطاق ، حيث وجدوا أن هدفهم ، وهو الاستثمار الاقتصادي والسياسي ، لا

يمكن أن يقوم إلا على أساس من الإستهوار والتعظيم والاستهوار الأخلاقى ،
حتى يتمكنوا من تفريق الكلمة ، وقتل للمعادن والأدب البشري ، والجمية
المبرية ففعلوا وسخروا أشياءهم فى الدعاية لباقيسوا . . .

ولو أن المعادن والآداب فى أمة من الأمم بقيت ثابتة متواردة ، وكانت
الرقابة عليها كاملة قوية لم يصبها ومن ، قساذ غنى أن يجتثاه من خرج عليها فى
خفية وأمكن أن يثقل من هذه الرقابة وألا يظهر أحد على قلته ؟ إنه لا يخفى
شيئاً أصلاً ، فالمجتمع الذى يعيش فيه ليس غلام القيوب . . . والمفروض أنه ليس
هناك جزاء إلا جزاء المجتمع وبهذا يظهر حائل آخر لضعف الوازع الخلقى
وعدم كفايته وحسن الوفاء بما يحتاج إليه المجتمع الانسانى .

التشريع الوضعي

الضمير النفسى الروحى الصالح هو خير هاد إلى الصراط المستقيم ، وحافز على إرادة الخير وقوله ، وعلى مقت الشر واجتنابه ، وهو وحده الذى يكفل للإنسانية أعظم حظ من السعادة .

وهذا الضمير لا ينشأ ويحيا ، ولا ينمو ويشتد ، ولا يسلم من الآفات إلا فى ظل وازع يهيئ له الجو الصالح ، ويبسط عليه حمايته ، ويكون حصنه المنيع وللوازع أنواعه المختلفة التى تتفاوت فى القوة والضعف ، وفى مقدار ما تسديه للضمير الإنسانى ، من المعونة والحماية ، وقد تساوت الوازع الحلقى ، ذلك الوازع الذى لا مصدر له سوى السلوك العام والتقاليد ، والعادات الحميدة ، وأثبت ما له من المزايا ، وذكرت أسباب ضعفه وأنه وحده لا يمكن أن يكفل لهذا الضمير ما هو فى حاجة إليه .. وتناولت أيضاً الوازع العقلى المجرد وأثبت أنه وحده لا يكفل شيئاً من ذلك الا فى ضعف واشتباه واضطراب ، ولهذا لم يترك الله جلت حكمته عباده سدى ولم يكلمهم الى عقولهم وسن لهم شرائعه وأرسل اليهم رسوله مبشرين وهداة مبينين ..

أما وازع التشريعات الوضعية فهو أقل الوازعات شأنًا ، وأضعفها أثرًا ، فهو ضعيف فى مصدره ، وضعيف فى منهجه ، وضعيف فى رقابته ، وضعيف فى آثار الجزاء الذى يقرره .

والنظرة الصادقة غير المتحيزة تقطع بأنه وازع ماذى محض ليس فى مقدوره ان يخلق الضمير الروحى أصلا ، وليس فى استطاعته وحده أن يشد أزره ولا أن يقوم بحمايته .

التشريعات الوضعية لا تقوم إلا على منطق العقل وحده ، ولا مصدر لها إلا ما يصل إليه فرد واحد أو فئة قليلة جداً عن طريق تفكيرهم وتجاربهم وما قد يلوح لهم من الأهداف وللحياة الإنسانية نواحيها الكثيرة المتشعبة ، ولها أسرارها التي لا حصر لها ، ومنها ما يظهر أمره ، ومنها ما يدق ويخفى وتضل فيه العقول ..

وللناس في هذه الحياة مطالبهم وحاجاتهم المختلفة ، ولهم أطباعهم وغرائزهم وزواتهم ، والمصالح على اختلافها متشابكة ومتضاربة ، ولاختلاف الأزمنة والبقاع أثره الذي لا يدفع ، وللعادات والتقاليد المتوارثة سلطانها القوي ، وعن كل هذا كانت الحياة الإنسانية مفعمة والمشكلات والنزاعات ، والتجارب مهما كان أمرها ناقصة والعقول مهما بلغ شأوها قاصرة على الدوام عرضة للخطأ والزلل ، وما يصدر عنها من الآراء والأحكام دائماً في تنازع وصراع .

والعقل البشري الذي لا هادى له ولم يسند العون الإلهي أعجز ما يكون عن أن يقود هذه الحياة قيادة صالحة ، وأعجز ما يكون عن أن يضع النظام الذي يكفل لأي جماعة خيرها وسعادتها ، وما مثل العقل البشري أمام هذه الحياة الا كتل من يقف أمام بحر لجى متلاطم الأمواج بعيد الأغوار لا يصير شواطئه ولا يدرك نهايته ثم يريد أن يسره بلا معين ، وبلا أسباب لديه .

لهذا لم يكن عجيباً أن نرى التشريعات الوضعية متضاربة متضاربة بعيد المدى حتى في أصول المسائل ، هذا التضارب الذي لم تنفع فيه المؤتمرات الكثيرة المتلاحقة التي تحاول التوفيق والتقريب ..

وإذا كان من التشريعات الوضعية ما أصاب نجاحاً فإنه لا سر له سوى ما اشتملت عليه من أحكام التشريعات الإلهية . وما تقرره قواعد الأخلاق والعادات الحميدة ، الذي استقر في النفوس على توالي العصور ، فدخل هذه التشريعات من هذا الباب وحده كان سر نجاحها .

أما تشريعات الأمم المتبررة التي لم يحكمها دين سماوى فهي أبعد ما تكون عن النجاح وليست الا تشريع القاب كما يقولون ..

وإذا كان الواقع يقطع بأن هذا هو السر في نجاح التشريعات الوضعية عند الأمم المتحضرة ، فالذي يتمتع من أن تعود بها إلى مصدرها الذي يخلق الضمير الروحي ويرسيه ، وفي هذا الخبر الكثير للإنسانة ..

ومنهج التشريع الوضعي منهج غير شامل ، فهو لا يواجه كثيراً من نواحي الحياة التي يجب أن يتناولها التشريع وليس شأنه في هذا كشأن التشريع الإلهي ، وهو في الوقت نفسه منهج مادي محض ، لا يخلق ضميراً روحياً ، ولا يقويه ولا يحجبه ، بل يترك كل هذا للترية الدينية الأخلاقية .. أضف إلى هذا أن من الأمم المختلفة من تفتن بأمة أخرى لامل أو عوامل متعددة فيأخذها الولع بتقليدها ، والسير في ركبها فتأخذ عنها تفرسها ، وكثيراً ما يكون غير ملائم لها ، وحى هذا التقليد قد أصبحت وباء منتشراً في كثير من الأمم ، وهذا منهج يتطوى على خطر دائم .

هذا إلى أن من التشريعات الوضعية ما لم تراع فيه مصلحة الجماعة أصلاً ، ولم يسن إلا لخدمة فرد واحد متسلط ، وللمصلحة حزب بعينه مهما كان الأمر ، ومهما انطوى على الضرر البالغ بمصالح الأمة نفسها .

والنفس لا ترجع عن غيها ما لم يكن لها زاجر منها ، وهذا الزاجر النفس ليس إلا الضمير الروحي ، خلقياً كان أو دينياً .

وهذا الضمير لا صلة له بالتشريع الوضعي الذي لم يستمد منه مكانه ولا قوته ولا يحيا في ظله ، فليس من المرتقب بحال أن يكون هذا الضمير طاملاً من عوامل إطاعة التشريع الوضعي وما قرأناه وقرؤه ، وما سمعناه ونسمع عما يصيب بعض المجرمين من الانزعاج المتواصل ، والاضطراب المفرط ، والانهيار البالغ ، ليس إلا تعذيب الضمير الروحي لخالفه تعاليم الدين أو قانون الفضيلة الذي ربي هذا الضمير وليس ندما على مخالفة التشريع الوضعي الذي لا يمت بصلة إلى هذا الضمير فليس لدى التشريع الوضعي ما يكفل إطاعته إلا رقابة الجهاز القائم على حمايته وتنفيذه .

وعلى أي حال لا يمكن أن تكفل إطاعة التشريع كفالة الضمير الروحي ،

ولولا هذا ما كانت هناك حاجة إلى إعلان الأحكام العرفية والاستماعة بالجيش
حين يجد الجند ولولا هذا لما استتت الدولة الواحدة بض الأما كن لتطبيق فيها
أحكام أخرى . . الأمور التي لا يرفعها التاريخ أزمان كان يسود الإيمان ويطبق
التشريع الإلهي الصحيح . ومن نظر النظرة المنصفة إلى الحياة أدرك ما يؤديه
الضمير الروحي في حسم النزاع عن طريق رسل السلام ومجالس الصلح ، وهو
ما لا يستطيعه التشريع الوضعي بحال . .

وإذا أفلت المرء من الرقابة ولم تصل إليه يد التشريع الوضعي لم يبق لديه
ما يخشاه فهو تشريع لا يقوم على بث ونشور ، وليس هناك ما يحمل على اطاعته
من خشية الجزاء في الدار الآخرة ، وهذا طامل من أقوى عوامل التهاون بهذا
التشريع الذي لا يخشى المرء من وراء مخالفته تعذيب ضمير ولا حسابا إلهيا
ولا عقابا أخرويا . .

الوازع الدينى

إن الوازع الوحيد الذى لا تشوبه شائبة من ضعف ولا يتوره نقص ولا قصور ، ويحقق للمجتمع هذه الأهداف ويصل به إلى تلك الغايات ، ليس شيئاً آخر سوى الدين فهو الوازع الذى يلائم الفطرة الإنسانية من جميع نواحيها وتقبل عليها النفوس فى رغبة وشوق بفرزتها ، وهو الوازع القوى بمصدره ، وهو ذو المنهج الشامل الجامع لكل المناهج وهو الذى تحوطه الرقابة الواقية الكافية التى لا تخفى عليها خافية ، وهو صاحب الجزاء الأوفى الكفيل بإطاعته والتزام حدوده ..

وإذا ذكرت ديناً فلا أعنى إلا الدين السماوى ، الدين الإلهى ، الدين الذى شرعه الله جلّت حكمته لمبادءه ، وأرسل به رسله اليهم متعاقبين منذ كانت الإنسانية إلى أن انطوى الوحي الإلهى ، وهو دين واحد فى أهدافه ، وفى أصوله ، وما كان الاختلاف فى تفصيل بعض أحكامه باختلاف المصور والرسل والمسيرة لتطور الإنسانية فى حياتها وتقدمها ، حتى إذا بلغت أشدها واستكملت العقول البشرية قوتها جاء خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام بإكمال الدين وإتمام النعمة ورضاء الله لمبادءه الاسلام ديناً .

(ملة أبيكم إبراهيم هو محامكم المسلمين من قبل - شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه - قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبليون من ربهم لا تفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين - اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) .

ان الدين الإلهي الذي دعا اليه جميع الرسل ، ولم تبتث به الأهواء ، ولم تندس بين تعاليمه الحيات ، والمقتريات ، وبلغ النفاية من الكمال بدعوة خاتم النبيين والمرسلين هو دين الفطرة الانسانية النقية الصافية التي لم تندسها الشبه والتضليلات ولم تسحرها الكلمات الرنانة الجوفاء ، ولم تستعبد بها أهواء السادة الرؤساء تنطلق اليه بفريرتها الروحية ، ونحسه تمام الاحساس بالوجدان والمشاعر ، وتلمس فيه الحصن الأمين والركن الشديد الذي تأوى اليه اذا ما عصفت العواصف واقترب اليأس من النجاة ، وتعجد عنده المواساة وقوة التحمل والسلوى حيث تمز عند البشر المواساة . والفطرة الانسانية لا يقف اتجاهها الى الدين الإلهي وانطلاقها اليه عند حد العزيزة والوجدان والمشاعر والأحاسيس ، وشرح الصدور بالاسلام بل يتجاوز هذا الى ما هو أسمى وأقوى ، وتهتدى الى هذا الدين بنور ما ركب فيها من العقل وقوة التفكير ، عظم نصيبها من ذلك أو ضئول ، وبما أرشدت اليه من التدبر والتأمل فيما نصب لها من الدلائل ، وفيما حولها من آيات الله التي أراها الله سبحانه لعباده في الآفاق وفي أنفسهم وفي ملكوت السموات والأرض ، واذ ذاك تمهم سر الحياة وتتذوق مضاهاتها وترى البداية والنهاية ، فلا تبقى حياة تافهة لا طعم لها ولا لون .

ولا ريب في أن الانسان انما يكون إنسانا بروحه أكثر ما يكون إنسانا بجسمانيته ولهذا الروح طالعها الإلهي الذي وفدت منه ، ولها حنينها وشوقها الدائم اليه ، الذي يتحرك بخطوات الاحساس وتوالي الأحداث ، ويدفع المرء الى غايات الكمال مهما كانت حجب المادة ومهما كانت أفاعيلها ، فهو مسوق بفريرته الى معرفة ربه وإلى الإيمان به وأتباع دينه ، واذ رجعنا الى ماضي الانسانية عرفنا أن الانسان منذ نشأته قد جعل الإيمان اشفق من يسليه في مصائبه ، وأرأف من يعزبه في نوائبه ، فكم من فؤاد موحى بكارثة لولا الإيمان لا يخطر . ولن يهبط بالسكينة والطمأنينة على نفس من كان عزيز قوم فذل أو غنياً فافتقر غير إيمانه بأن معه من يعلم السر وأخفى وهو وحده القادر على أن يمدد بالمعون في شدائده ولن ينزل بروح الصبر والتسلي على فؤاد أم فقدت وليدها في ريمان شبابه سوى إيمانها بأنه أصبح وديعة لها عند خالقه ، وهكذا كلما تدبرنا حدثاً من الأحداث أو نازلة من النوازل

وجدنا أن الإيمان بالله هو صخرة النجاة ، وأنه لازم من لوازم الإنسانية ، وحاجة من حاجات هذه الحياة ، من فقدته فقد طيب الحياة ولو ملك الدنيا يمينه ، ومن وجهه فقد نظرت براحة الأبد .

ومع الفريزة الروحية ، والوجدان والمشاعر ، يكون نور العقل ومنطقه ، والمهداية الإلهية ، وإرشاد الرسل ، فتكامل عناصر الفطرة الإنسانية ، وتكتمل قوتها ، وتنتقل إلى بارئها وإذ ذلك يكون الإيمان الصحيح واعتناق الدين الحق ، أترأ من آثار الفطرة الإنسانية ، وذلك ما ارتضاه الله جلّت حكمته لعباده وقرّره آى الكتاب الكريم في مواطن كثيرة جداً ، يكفى في مقامى هذا أن أذكر بعض ما جاء فيه عن أبي الأنبياء وأبى المسلمين إبراهيم خليل الرحمن : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي فلما أفل قال : لئن لم يهْدِنِ ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال : يا قوم إني برىء مما تشركون إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) .

وبهذا أيقنا أن السلام دين الفطرة ونستطيع أن نهم حق الفهم قوله تعالى ذكره (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

الدين شرعة العليم الخبير

الضمير الروحي ، أو النفس الانسانية الباطنة ، النفس المطمئنة الراضية المرضية ، التي تنشر النور وصدق النظر ، وتهود إلى الخير ، وتتقى على التزوات العاتية ، وتنبأ عن السوء بكافة ضروبه ، وتكفل السعادة للفرد وللجماعة على السواء ، وهذا الضمير الذي لا تستقيم أمور الانسانية إلا بحياته ، لاشيء يبدئه أحسن إبداء ، ولا شيء يريه خير تربية ، ولا شيء يقوم على حمايته أفضل من الدين الآلي ، والإيمان بالله عز قدره وأتباع شرائعه والتزام حدوده ، فهذا هو العامل القوي والمهذب الكامل ، الذي لا يصيبه ضعف ولا يشوبه قص ، فهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهو صخرة النجاة ، وهو الملجأ الأمين ، وهو فوق هذا شرعة عالم الغيب والشهادة الرقيب على عبادته وهو على كل شيء شهيد يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائفة الأعين وما تخفى الصدور ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يمرج فيها ، وهو مع عبادته أينما كانوا ، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا وما يعزب عنه من مقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا اسفر ولا أكبر ، يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

أما عبادته فأنهم لا يحيطون بشيء من عمله إلا بما شاء ، ومهما كان مبلغ علمهم فإنه لا يعدو أن يكون علما بعض ماجرى وما يجري ولا يتجاوز به إلى علم ما سيكون الذي لا يستطيعون في شأنه إلا الحس والتخمين ، ولا يكون مع هذا إلا علما بظاهر من الأمر وعلى قدر ضئيل وجد ضئيل وما مثله إلا كثرة في تلال من الرمال وقطرة من الماء في محيطات ، ومن حق هؤلاء علي

انفسهم ألا يعرضوا عن شرائع ربهم إلى ما يضعون من التشريعات التي لا تقوم إلا على علم ضئيل هزيل .

وما شرعه الله تبارك اسمه لعباده هو شرعة الخير بهذه العوالم جميعها ، الذي خلقها فأحسن خلقها ، ودبر أمرها أحكم تدبير ، يقوم على العلم بطبائنها وكل خصائصها ، وما يلائم كل نوع منها ، أما عباده فانهم لا يزالون واقفين حيارى مشدوهين أمام هذا الكون وأسراره التي لا تنهاى ، ومحائبه التي لا تنقضى ، وهم أعجز ما يكون مهما كان تقدمهم عن إدراك كنهه وفهم أسرارهم والوقوف على حقيقة ما ينبغي أن يكون ، وما ينبغي ألا يكون ، خلق عليهم ألا يفرهم للغرور وأن يخضعوا لما سنه لهم العليم الخبير .

وما شرعه الله عز قدره لعباده هو شرعة اللطيف بهم ، الذي كتب دلي نفسه رحمتهم ، وشرع لهم ديناً يسيراً لا عسر فيه ولا حرج ، ولم يكلفهم ما لا يطيقون ، والله جل شانه متزه عن الظلم فهو لا يظلم الناس شيئاً ، وهو متردد عن الأغراض والغايات ، فشرعته على العوالم شرعة طادلة رحيمة لا تتأثر بأى غرض من الأغراض ، أما الناس فإن الظلم شيم تقوسهم والفسوة مظهر من مظاهر قدرتهم ، وقل أن يصدر عنهم تشريع لا يظهر فيه أثر بين للآخرة ورواية المصالح الخاصة للحاكم المستبد ، أو للحزب المتغلب أو لطائفة معينة ، فهذه المصالح هي التي تكون محل الرأية ، وسيبان بعد هذا أن يتحقق المصالح العام ، وأن يذهب ضياعاً ، وشتان بين هذه التشريعات وتشريع العليم الحكيم اللطيف الخبير الذي لم يكن إلا لتحقيق المصالح العامة ولا تقبوه شائبة من هذه النقائص . وما شرعه الله جل جلالته بعباده فسيان أحدما ما يرجع إلى الإيمان بالله ، وتوحيده وصفاته وإلى البعث والجزاء وسائر العقائد الصحيحة ، وكل هذا لا يقبل تغييراً ولا تبديلاً وقد جاءت به كل الرسل على تماقها منذ كانت الإنسانية إلى أن انقطع الوحى الإلهى ، وهو تشريع احتفظ بسيادته فى هذا العالم رغم ما كان من الاشتراك والوهمية ، رغم تيارات الزندقة والاحاد والمادية ، وإذا فشا نوع من هذه الضلالات فإن العالم لا يلبث أن يفتق من غمرته ويستعيد صوابه .

أما القسم الآخر فهو شرائع الاحكام ، وهذه الشرائع الالهية قد سارت

الانسانية في نشأتها وفي طفولتها وفي سائر الأطوار التي مرت بها ، حتى إذا تم
تضجها وبلغت أشدها وبلغ العقل البشري ما يبلغ من القوة أكل الله شربته
فأتم نعمته على الناس ورضي لهم الاسلام ديناً إلى آخر الدهر .

وهذا التشريع وقد أراد الله جلّت حكمته أن يكون تشريعاً ثابتاً للناس
كافة كان لا بد أن تكون النظرة فيه إلى الأشياء مختلفة باختلاف طبائنها
وما يمكن أن يطرأ عليها ، فاما ما شأنه ألا يتأثر كثيراً باختلاف الأقاليم
والبيئات ، والأعراف والمادات وما يحيد من الظروف والأحداث فقد
قرر هذا التشريع أصول مسائله ، وفصل أحكامه تفصيلاً وافياً ومع هذا
كان تفصيلاً يفسح الطريق للاجتهاد بقدر . وذلك كنظام الدولة ومواردها
والزواج والطلاق والوصايا والموارث ، والجريمة والعقاب ، والمبادات .

أما ما من شأنه أن يتأثر تأميراً ملحوظاً باختلاف الأصقاع والبيئات
والأعراف والمادات (وما يحدث من تطورات الميث والحياة) فهذا وضع له
القواعد الكلية المرة التي تصلح لكل زمان ومكان ، وتوسع لحاجات الناس
جيماً ، وتفتح للاجتهاد في هذه الأمور أوسع الأبواب (وبمداقطلاع الوحي
الالهي افرغ الأئمة المجتهدون جهودهم في مواطن الاجتهاد ، واستنبطوا من
الأحكام ما شاء الله ان يستنبطوا ، وكان بينهم في هذا اختلاف شأنهم في
هذا شأن الدارسين والشارعين ، ثم جاء من بعدهم الفقهاء المجتهدون في
المذاهب وأهل التخريج ، والمحاجب الوجوه ومن إليهم فسلكوا طريق السابقين ،
وأدوا واجهم أحسن الاداء ، وقد دام هذا قروناً متطاولة ، وطاصر الشدة
والرخاء ، والحضارة والتأخر ، والسيادة بكل ضروبها والاستعباد بجميع ألوانه .

ومن هذه الاجكام وما استنبط المجتهدون كله كانت لنا ثروة تشريعية عظمية
لا مثيل لها وإذا أحسن الإختيار منها في أي بلد كان فيها أيسر حل لمشاكله ،
وانجح دواء لأمرائه الاجتماعية وأعظم كفيل بتحقيق مصالحه على أكل وجهه ،
ولا يعوقها عن الوفاء بكل هذا أي طاق من أحكامها ، ولقد حكمت في ازهي
عصور التقدم الاجتماعي والخلقى فاقصرت بأهلها ولا تخلفت بهم عن ركب
الحضارة ، أقول هذا تذكرة لمن يؤمنون بالله وكتابه الكريم وبرسوله صلى
الله عليه وسلم وبما جاء به من تعاليم فان الذكرى تنفع المؤمنين .

الفصل الثاني

المنهج الاسلامي

الإنسان

لأنه لا ملجأ للإنسان في هذه الحياة إلا نفسه القويّة الصافية المطمئنة وقواها الروحية الخيرة ، فهي وحدها التي تنجيه من المهالك ، وتقيه الأزلاق في منزلة الرذيلة ، والتردى في مهاوى الشرور والآثام ، وتحول بينه وبين طغيان المادة وإغرائها وتحسن توجيهه في جميع المناحي ، وهي خير هاد يهديه في كل ما يأتي وما يذمر مع نفسه ومع خالقه ومع أسرته ومع مختلف الأفراد والجماعات. ولئن نال الإنسان من كل هذا حفظه الأوفر إلا من طريق الدين السهاوي ، الدين الإلهي الذي ارتضاه العظيم الخبير لعباده فهو كما فصلت خير مرب ومهذب للنفوس ، وأفضل مصقل يصقل الأرواح ، وأقوى حارس يقوم على حراستها في جميع أطوارها ، وليس كمثل في هذا أية وسيلة من الوسائل الأخرى التي عرفها الإنسان ، إذ هو اللاملم لمطرته ، يصل إلى قلبه في سر وسهولة وتخالط بشاشته نفسه وينشرح له صدره أسرح ما يكون ويركن إليه وينعز له في ثقة واطمئنان ، وهو كذلك أقوى هذه الوسائل بمصدره ، فهو من الله العظيم الخبير اللطيف بعباده . ولا تحف قوته عند ملازمة الفطرة وقوة المصدر ، بل أقوى ما يكون أيضاً بمنهاجه الخافل . فالمنهج الإسلامي منهج قوى وحام وشامل ، جاء بالتوحيد والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبما لله عز قدره من صفات الكمال ، وتزل بشرائع الأحكام التي تنظم خير تنظيم علاقة الإنسان بربه ، وبأسرته ، وبذولته ، وبسائر الأفراد والجماعات ، وجاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وليغرس مكارم الأخلاق ويربها ، وليحارب الرذيلة بكل ما فيه من قوة ، وليرقي بالإنسانية ويهديها إلى كل ما فيه خير لها ، ولم يقصر في شيء من هذا ما قصر الأخلاقيون وما قصرت الشرائع الوضعية ، وتناول هذا المنهاج ما لا يستقل العقل البشري بإدراكه وطريق الوصول إليه ، وكانت له أصوله الراسخة وفروعه الباسقة وظلاله الوارفة ، وثماره الشهيّة الناضجة .

وأول أصول هذا المنهاج وأساسها الراسخ هو الإيمان بالله وحده وبمظيم قدرته وبكل ماله من صفات الكمال ، فمن شرح الله صدره بهذا الإيمان واشترقت نفسه بنوره وخالطت بشاشته قلبه وادرك أن الله جلت قدرته هو القاهر فوق عباده ، يده الملك وحده وهو على كل شيء قدير ، صفت نفسه إيماناً صفاء ، وقويت روحه اشد قوة ، وقاوم المادة وإغرامها ، واتجه بكل قواه إلى الملائ الأمل ، الملائ الذي وفدت منه روحه ثم هي راجعة إليه طال الأمد أو قصر ، فلا يبعد إلا باريه ، ولا يلتبس إلا هدايته ، ولا يستعين إلا به ، ولا ينزل إلا له ولا يفر وجهه لسواه ، واذ ذاك يمجّد نفسه كما أراد الله أن تكون ويسمى جاهداً في مرضاته ، يمثل أوامره ، ويحجّب نواحيه ، ويتحلّى بمكارم الأخلاق وينأى بجانبه عن الرذائل والآثام ، ويعمل لخير الإنسانية ما وسعت طاقته وينذل ما في استطاعته لنصرة الحق وتأيدته ، وفي محاربة الباطل والقضاء عليه ، موقناً بأن الله لا يخذله ، وأنه ناصره ومؤيده ، أن أبطل عنه نصره أحياناً فإنه آت لا ريب فيه ، ومن هذا تفرّقه أمواج متلاحقة من العزة والكرامة ، والنصفة والاستقامة وحب الخير ، ويكون في أرقى درجات الإنسانية . وليس لأى متدبر منصف أن يتربص الوصول الى تلك الحلال ولا الظفر بتلك الآثار من طريق العقل البشرى المجرد مهما بلغت قوته ولا من الأخلاقيين وتعاليمهم ولا من الوضعيين وشرائعهم وإنما طريقها الوحيد هو الإيمان .

ولا جدال في أن الإيمان عقيدة قلبية باطنة يعبر عنها اللسان ويظهرها للآخرين ولنوع ما دار من الجدل حول حقيقة وكون العمل جزءاً منها أولاً ، غير أنه لا ريب في أن أصل الإيمان كأصل الشجرة العظيمة التي تكون لها فروعها وأوراقها وثمارها إذا كملت لها هذه الأشياء كانت شجرة كاملة وارقة الظلال طيبة الثمر عميقة النفع محققة لكل ما يرجى منها وكذلك الإيمان إذا اقترن أصله بصالح الأعمال أما إذا فسدت الثمار وتحانت الأوراق وتساقطت الفروع فإنها تكون عوداً ألس وكذلك يكون شأن الإيمان إذا لم تصحبه الأعمال الصالحات ويكون على درجة متفاوتة بتفاوت ما يكون معه من أعمال البر والخير وكل ما يكون خلع الإنسانية في الأولى والآخرة وإنما لتحس هذا ونلمسه في العناية البالغة التي عني

بها الكتاب الكريم في إيراد الإيمان مقترنا بالأعمال ، وفي الأوصاف العملية التي
 يصف بها المؤمنين (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر
 من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه
 ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام
 الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء
 وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (قد أطلع المؤمنون الذين
 هم في صلاحهم خاشعون والذين هم عن الفغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون
 والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير
 ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم
 راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس
 هم فيها خالدون) .

ورسول الله ﷺ يقول : الإيمان بنزع وستون شعبة أدناها إمطة الأذى
 عن الطريق ويقول : الحياء شعبة من الإيمان ويقول : المسلم من سلم المسلمون من
 لسانه ويده . ويقول : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

العلم

إذا كان الإيمان هو عماد الدين وقطب راحة ، وحجر الأساس في المنهج الإسلامي فإن مما يحىء في أعقابه وله للمكاة العظمى في هذا المنهج محاربة الجهل في جميع البيئات ونشر العلم بين جميع الطبقات ، والتهوض بالتعليم والتعلم نهضة شاملة لا هوادة فيها ، فالعلم هو معراج الرقي والحضارة الإنسانية ، وهو السبيل الوحيد للسعادة ، في الدنيا والآخرة ، وما كرم الله عز وجل الأدب وفضله على كثير ممن خلق بفضلته وعظم جسمه ، فكلم من حيوان أعجم هو أعظم منه جسداً وأضخم منه جنة ، وما فضل ولا كرم بما آتاه من القوة فكلم من دابة هي أشد منه قوة وأعظم منه ، وما فضله ولا كرمه بما لده من شجاعة وإقدام فنباح الحيوان وكواسر الطيور أعظم منه شجاعة وأكثر إقداماً وما فضله ولا كرمه ، وما سخر له ما حوله من المخلوقات وما يحيط به من الكائنات إلا بما حله من أمانة العقل والنطق ، والفهم والإدراك ، وما يسر له من وسائل العلم والمعرفة فأخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لتكون أدوات علم ومعرفة ، وأراهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ونصب لهم فيها حوالم أعظم الدلائل ليزدادوا علماً ، وشرع لهم شرائع الأحكام ، وأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، وهداهم معلمين ليتم لهم نور العلم والمعرفة ، وليرقوا إلى درجات الكمال وليظفروا بأعظم قسط مستطاع من الحضارة ، فمن أعرض عن سبيل ربه ونأى عنها بجأبه بقي مغموراً في ظلمات الجهل ، يخطئ خطئ عشواء ، إن أصاب مرة أخطأ المرات ، وما تكون إصابته إلا بمحض الصدفة ، فهو يجهل ولا يعلم ، ولا يهتدي لنفع ولاضر ولا يحسن أن يفكر ولا أن يقدر ، وإن هو إلا كالأعمى بل أضل سبيلاً ، وهو من شر الدواب كما قال العزيز الحكيم (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) والويل كل الويل لمجتمع يسوده الجهل ، فهو في طوفان من الغوضى والاضطراب ، ولا تصان فيه حقوق ولا تعرف واجبات ، وكل روابطه

وسائر أمورهِ في انحلال، وهو فريسة الأعداء والطامعين ولا مصير له إلا الاستبداد والفساد، أما من اعتدى بهدى بارئه وسلك سبيله السوى فإن نفسه تنشق بنور العلم والمرقة، (تصفو روحه أتم الصفاء، وتغرب على الدوام من ملامها الأعلى، فيعرف نفسه وربّه، حق المرقة، ويشرح بالإيمان صدره ويلتزم مكارم الأخلاق وحدود الله، ويعرف ماله من الحقوق وما عليه من الواجبات، وبه وبأمثاله رقى المجتمعات، ولما ذكرت من المعاني وما ألم به كانت عناية المنهج الإسلامي بالعلم والتعليم أعظم عناية .

وقد أعظم الكتاب الكريم شأن العلم وأهله وأمتن به على عباده، كما فرض التبليغ والتعليم ولمن من يكتمون العلم، أما السنة النبوية الصحيحة فزاجرة بهذا وبغيره، وقد كان أول ما بدىء عليه الصلاة والسلام من الوحي ونزل من القرآن قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم) ثم تتابع نزول الكتاب الكريم وفيه الكثير من الآيات التي تحث على العلم وتحظ من شأنه وشأن الله له يقول جل شأنه (خلق الإنسان علمه البيان) ويقول تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون، والذين لا يعلمون) وتلك الأمثال ضريبة للناس وما يسقها إلا العالمون) إنما يخشى الله من عباده العلماء (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) - ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «العلماء ورثة الأنبياء» ويقول: عليه السلام.. «للأنبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة» - ويقول: سبحانه في شأن التبليغ والتعليم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل فإني بلغف رسالتك) - ويقول جل شأنه (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) - وقال صلى الله عليه وسلم (نعمت العطية ونعمت الهدية كلمة حكمة تسمعها فتنتوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تبدل عبادة سنة - وقال عليه الصلاة والسلام بعد ما علم من الأحكام، إلا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، إلا هل بلغت اللهم فاشهد.. - وقال: نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فآذاه عنا كما صممه وقال: لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله فسلطه علىهلكته في الحق

ورجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . وقال من سئل علما عليه فكتنه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار ، وفضل عليه الصلاة والسلام الجلوس مع المعلمين والمتعلمين على الجلوس إلى جماعة المتعبدين الداعين وقال : وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل . . وإنما بحث .

وقال عليه الصلاة والسلام في شأن المتعلم : وما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيها علما إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . وكان من فداء أسارى بدر أن يعلم الأسير القارىء عشرة من المسلمين ، وكان عليه الصلاة والسلام العالم الأول يعلم في المسجد وفي البيت وفي الطريق وفي كل مكان ، ويعلم الرجال والنساء وجعل لجماعتين يوماً يأتي فيه لتعليمهن ، ولم يكن التعليم قاصراً على طبقة دون طبقة فهو تعليم شعبي الشكلى فيه سواء .

ولقد سرت هذه الروح فى أصحاب رسول الله وفى سائر المسلمين فلاؤوا الآفاق علما وكانوا القادة المعلمين المرتقين بالإنسانية من حضيض الجهل إلى أرقى درجات العلم فى شتى العلوم والفنون والآداب ، فكانوا بحق أساتذة الإنسانية والعلم والمعرفة .

والمنهج الإسلامى منهج دينى يعنى عن أن الإسلام دين جاء بما يحقق مصالح المبادىء فى الدنيا والآخرة ودعا إلى أن يعمل المرء لدينه كأنه يعيش ابداً وأن يصل لأخرفته كأنه يموت غداً . فإدعو إليه هذا المنهج من العلوم والتعليم شامل للعلوم الشرعية وغير الشرعية ، وفرض على امرئ أن يتعلم من العلوم الشرعية ما تصح به عبادته ومعاملاته مع الناس ، ومن غير الشرعية ما يحتاج إليه فى تدبير رزقه وقوام حياته .

إما تعلم ما زاد على ذلك فإنه من فروض الكفايات التى إذا قام بها البعض سقط الواجب عن الآخرين ، وإذا قصرت الجماعة فيها أئمو جميعاً . وفرض على كل جماعة أن يكون من بينهم طائفة بالعلوم غير الشرعية كالطب والحساب وأصول الصناعات كالفلاحة والنسيج والحياطة وغير ذلك العلوم والفنون والصناعات التى يؤدى ضياعها إلى تأخر المجتمع ووقوعه فى الحرج والأصل فى كل هذا الدال عليه بمنصبه ومنطوقه أو بروحه ومعناه قوله تعالى ، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . .

الزهد

الزهد بمعناه السليم الصحيح الذى لا يتجاوز حد القصد والاعتدال فى الطلب وفى المتعة بمباهج هذه الحياة وزينتها ، ولا يخرج عن إطار الموازنة بين مطلب الروح ومطالب الجسد وإعطاء كل منهما حقه المشروع الذى ترضاه العقول المتبصرة حيث لا يكون فى ذلك وكس ولا شغل . أن العليم الخبير جلت حكته ليعلم أن هذه الحياة الدنيا حياة أساسها المادة وهى موطنها وأن الروح قد وفدت إليها مقتربة من ملائها الأعلى ، ويعلم جل شأنه ما للعادة من سلطان وإغراء ونزوات ، وما لها من أعوان ، فلم يضع عباده ، ولم يتركهم سدى وانزل إليهم هدايته وتعاليمه التى تحذرهم من عواقب الأفراط والتفريط ، وتدعوهم الى ما يقيم سيئات المادة وآفاتنا قد حاطم فيها دعا إليه الى الزهد لا بمعنى رفض الحياة الدنيا والابتعاد عما فيها ، ولكن بمعنى التزام حد القصد والاعتدال فى طلب ما فى هذه الحياة وعدم الإغراق فى الإقبال على ما فيها من المتع والهوى واللذات وتحصيل الوسائل التى تكفل لهم ما يريدون الى حد يذهب بما للحياة الروحية من الحقوق ويلهى عن ذكر الله وتباعد ما بين المرء وعبادة ربه وأداء ما للروح من الحقوق . يرشد الى كل هذا قوله تعالى ذكره « أَلَمْ أَكُ الْمُسْتَكْبِرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا خَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . وقول رسول الله ﷺ أن الدنيا جلوة خضرة

وان الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون . فمن وفر لروحه الفداء
الصالح ولم ينس نصيبه من الدنيا فقد ظفر بالخيرين وكان من الزاهدين وأن
كثر ماله .

ودعا الى الزهد لا بمعنى تحريم الحلال واجتناب الطيبات من الرزق والتزام
شغل العيش وخشوته مع القدرة علي ما هو خير فيه « قل من حرم زينة الله
التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . ولكن بمعنى القصد والاعتدال في التمتع
بطيبات الرزق واجتناب الإفراط في الترف والتعميم الذي تقويه القلوب ، وتسلب
به نزوات المسادة وتحرم الروح من لذائذها ، والاقتصاد عن الاسراف والتبذير
المعقوتين - يا بني آدم خلوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا
إنه لا يحب المسرفين ولا تجعل يدك مفلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعبد
ملوماً معسوراً ولا تبذر تبذيراً إن المبشرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان
لربه كفوراً والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً -
ويقول عليه السلام : الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحمقها بارك الله له فيها ورب متخوض
فيها اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار .

ودعا الى الزهد بمعنى القناعة والرضا بما آتاه الله لبيده وأن قدر عليه رزقه ،
فالظفر الى ما في ايدي الآخرين ليس من ورائه إلا الحسرة والسخط والحقد
والحسد ، وكثيراً ما يدفع المرء الى ما هو شر من ذلك ، ولا تمدن عينيك الى
ما منعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى
ومن مد عينه الى زينة المترفين كان معقوتاً في ملكوت السموات والأرض ومن
صبر على القوت الشديد صبراً جيلاً أسكنه الله من الفردوس حيث شاء .

على هذه المعاني وأشباهاها يدور معنى الزهد الذي دعا اليه الدين الاسلامي
ومقاصده منه واضحة جلية ، غير أن من الناس من جهل الدعوة الاسلامية البينة
المعاني والمقاصد فضل سواء السبيل وانحرف بالزهد عن مضاه ، وزعم أنه
لا يكون إلا باجتناب الطيبات من الرزق وتحريم كل ما فيه زينة ومتممة ، والفرار
من المال وإن كان من أطيب الطيبات ، والقعود عن طلب الرزق والتفرغ للعبادة

وأن ضيع أهله وولده ، واجتنب النساء ، فبدل بذلك أحكام الله وحرم على نفسه ما أحل الله له وقطع الأرحام وضيع الحقوق وجفا الأنام واكفر وجهه للأغنياء ، وتجاهل أن رسول الله ﷺ ، وهو قدوة الزاهدين ، كان يتمتع بشهى الطعام ويلبس جميل الثياب وكان الطيب من أحب الأشياء الى نفسه ، كما تجاهل ما كان عليه كثير من اصحاب رسول الله ﷺ في عصره من الثراء وكان في تلميذهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف اللذان قيل فيهما أنهما كانا خزائين من خزائن الله في أرضه ينفقان في طاعته ، أن هذه النزعة الممقوتة التي جرت علينا ما جرت في القديم وفي الحديث ليست إلا ععادة لأحكام الله ومقاصد شرائعه وليست الا ورعاً بارداً وتعلطاً في الدين .

الفصل الثالث

المعاملات الإسلامية

المعاملات الإسلامية

المنهاج الإسلامي ليس منهاج آخرة فحسب ، وليس منهاج دينا فحسب وإنما هو منهاج جامع شامل ، لم يقف عند صلة العبد بربه وما يتصل بذلك من تهذيب أخلاقه وتجاوز هذا إلى جميع شئون الحياة وتغلغل في تفصيلاتها وشرع لها ما يكفل للمجتمع وصوله إلى أرقى ما يستطيع من السكال في هذه الحياة . فتناول صلة المرء بأصله وولده وسائر أعضاء أسرته قريبه وبسببهم ، وشرع لذلك أحكم الروابط ، وسن له أفضل المعاملات ، التي يحيط بها إطار عظيم من الرحمة والشفاق ، والثقة المتبادلة والتعاون تزيهه مكارم الأخلاق ، وتناول صلته بمن يجاوره وكل من يخالطه وتحضى دواعي هذه الحياة بأن تكون له معاملة معه شاق نطاقها أو اتسع ومن أى نوع كانت ، وشرع لذلك أفضل الشرائع التي تكفل المصالح وتحضى على الفاسد ، وتبين الحقوق والواجبات . وتقرر العدالة التامة في المعاملات المادية والأدبية على السواء ، كما ميزت بين الحلال والحرام وما بينهما من متشابهات ، وسنت أعدل الجزاء وأفضله من الثواب ومن العقاب في هذه الحياة وفي الآخرة .

وتناول هذا المنهاج الصلة ما بين الحاكمين والمحكومين ، وبين ما لكل من الحقوق وما عليه من الواجبات ، وسار بالقبولة في كل جماعة على منهج واضح المعالم وعلى الصراط المستقيم .

وتناول هذا المنهاج شئون الانسانية نفسها ، واتجه بها الاتجاه الذى يكفل خيرها وسعادتها . فعاملة الانسان لربه ومعاملته لنفسه ، ومعاملته لغيره ، من الأفراد والجماعات ومعاملته لولته ومعاملة دولته له ، ومعاملة الجميع نحو الانسانية كل أولئك قد تناولها المنهاج الإسلامى فى أوسع نطاق . وفصل أحكامه . وجاء

فيه مجموعة بقية محكمة هي شرعة العلم الخير. التي جمعت أحكامها بين الحقوق الروحية الأديّة والمادية .. ولا يخلو أى حكم منها وإن كان من أحكام العبادات من الجلب بين حقوق ثلاث . حق الله سبحانه وتعالى وهو إطاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والالتقاء لتعاليمه ..

والحق العام ، وهو الحق الذى يعود نفعه إلى المجموع ، والحق الخاص وهو ما يعود نفعه إلى كل فرد بخصوصه .

وهذه المجموعة من الأحكام مجموعة مراقبة متناسقة متكاملة ، يجب أن تحكم جميع المعاملات ، وأن تخضع لها كسكل وإلا يقطع أوصالها .

أما إذا آمننا ببعض منها دون البعض الآخر ، واتبعنا طرقاً منها ونبذنا سائرها فالتنا بهذا الصنيع نشوء جالماً ونزق أعضاءها . ونذهب يروحها ، ونفتح أبواباً واسعة لمن شغف يتلمس العيوب ، وحرص على أن يبدى فيها ويبيد ، ثم لا نمناس لنا إذ ذاك من الاضطراب والخضوع لمجموعة متناقضة من الأحكام لا تربطها روح واحدة وهي أشبه شيء بمفرقات الثياب التي يرتديها بين ظهرائنا من نطلق عليهم المجاذيب .

هذا إلى ما يصيبنا من خسارة كبرى . هي القضاء على الوازع الدينى وموت الضمير الروحى الذى لا يعد له أى ضمير آخر ، ولا نصنع إلى قول من يقولون قلندع لرجال الدين تربية الضمير الروحى وحراسة الوازع الدينى ولنسائر ركب الحضارة ولنسكن من أهل المجتمع الحديث ، ولنتحكم معاملاتنا أحدث الشرائع الوضعية فإن ذلك خبر لنا وفيه جمع بين الأفضلين ، ولا نصنع إلى هذا وأشباهه فإنه ليس إلا زخرفاً من القول وتمويهاً إذا نظر إليه أدنى نظرة فاحصة بأن عواره وذهب هباءً منثوراً ..

وأما قولهم قلندع لرجال الدين تربية الضمير الروحى وحراسة الوازع الدينى إلا تقليد أعمى لقوم آخرين اقتتنوا بمالم اليوم من سلطان وغلبه . ومأم عليه من قوة مادية جافة وهم قوم لا تنهيم الحياة الروحية بقبر ما تنهيم الحياة المادية المجردة ، ولم تكن بلادهم يوماً من الأيام مهددين إلهى ولا موطن وحى ميموى

ولما جاءهم دين الله الحق استجاب له من استجاب على مهل وتردد ثم أبت عليهم طباعهم إلا أن يتحلوا من أحكامه ما وجدوا تلك سبيلا ، ثم انقلبوا إلى مهد الديانات ومهبط الروح السماوي ليقبوا أهلها في دينهم ليسهل عليهم تفريق كلمتهم وتزويق وحدتهم فيسهل عليهم استلاب ديارهم واستبعادهم واستئصال جهودهم وأموالهم . .

على أن هذا القول إذا أمكن أن يقال بأزاء منهاج ، اقتصر على صلة العبد بخالقه وما يتصل بها من مكارم الأخلاق لا يمكن أن يقال بأزاء منهاج ديني جامع تناول كل شئون الحياة ووضع أحكاما لجميع أنواع المعاملة إذ لا سبيل إلى تربية ضمير ولا حراسة وازع من أحد إذا فرقت هذه الأحكام . فمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه وألفت نفسه الخروج على شيء من أحكامه علانية وفي غير مبالاة رأن على قلبه ما كسب وترامى الصدا على نفسه ، وترعزت عقيدته ، واعتدل ضميره الروحي ومات وازعه الدين ولن تنفع معه الوسائل الأخرى كاشة ما كانت ، فإن التمرد على الدين ومخالفة أحكامه قصداً أشبه شيء بالتمحدر الأملس إذا وقفت الأقدام على بدايته لا يمكن أن تثبت حتى تصل إلى نهايته .

أما الحديث عن الحضارة وركبها وهي أحدث التشريعات والأخذ بها فليس إلا تنكسرا للحق وإنكار الحقائق الثابتة ، فالمنهاج الاسلامي منهاج حافل وغنى بالأحكام التي جاء بها القرآن الكريم ، والتي وردت بها السنة النبوية ، والتي استنبطها الأئمة المجتهدون وهو منهاج حاش قرونا متطاولة لم يشهنا سواء ، وطوف الآفاق شرقا وغربا وشمالا ، وجنوبا وطاصر الرخاء والشددة وحكم في أزهي العصور فما قصر عن حاجة ، وما كان يوما ما عقبه في سبيل التطور والتقدم ، وما تخلف بأهله في أي حين عن ركب الحضارة . . وما كان هذا الحديث إلا مغالطة مكشوفة وتجنبنا سافراً . . والله المستعان على ما تصفون .

حرمة الانسانية

جاء الاسلام بأحكم الشرائع وأفضل الأحكام والتعاليم التي تكفل للأفراد والجماعات صالح التربية وتسير بهم سيرا حثيثا في طريق السكال والتهديب ..

وفي طليعة هذه التعاليم الحكيمة احترام الانسانية وإيضاؤها كل حقوقها وتكريمها اينما حلت وكائما ما كان الانسان ، ففرض على كل امرئ أن يؤمن بأن للناس سواسية في انسانيتهم كأنتان المشط ، لا فضل لأحد على الآخرين إلا بأعماله الصالحة التي يود خيرها إلى الانسانية في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة ..

حقا أن الله جلت حكمته قد فضل بعض عباده على بعض في الرزق فكانوا طبقات في الثراء والنعمة وفي الأخلاق والأعسار .. حقا انه سبحانه جعل الناس طبقات في احسابهم وأنسابهم ، وجعلهم طبقات في القدرة والضعف ، وفي الجاه والسلطان ، فكان منهم الأحرار والأرقاء ، وكان منهم الحاككون ، والمحكومون ، وكان منهم الأقرباء والمستضعفون ، كما جعلهم عظمت قدرته شعوبا وقبائل مختلفة اجناسها وألوانها ، فكان منهم الأبيض والأسود .. والأحمر والأصفر .. كل ذلك قد كان كما كان سواء ، ولئن تفاوت بين الناس في شيء من ذلك منها كان أمره لا يقضى بالتفاوت بينهم في الانسانية ، ولا يبرر امتقاض شيء مما لها من التكريم وسائر الحقوق ، وما التفاوت بينهم إلا بالأعمال الصالحة التي تكفل للانسانية سعادتها .. بهذا نطق الكتاب الكريم ، ووردت السنة النبوية الصحيحة ، وعليه درج صالحو المؤمنين في مختلف العصور .

فالله تبارك اسمه يقول في كتابه الكريم (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا .. فالله جل شانه انما كرم فيهم الأدمية والانسانية ، فلم يستثن من أهلها أحدا ، ولم

يخص منهم سيّدا من مسود ، والأغنياء من فقراء . . ولا حرا من رقيق . .
ولا أبيض من أسود وأحر وأصفر ، بل السكّل في هذا التكرّم سواء ما اقاموا
على الوفاء لانسانيتهم وأداء ما لها من الحقوق ، ويقول تعالى ذكره (يا أيّها الناس
إنا خلقناكم من ذكر واتى وحيطناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنا أكرمكم عند
الله اتقاكم أن الله عليم خير) فالله جلّ قدره إنما أراء من الناس جميعا أن
يتعارفوا فيتتألفوا على سواء وأعلمهم أنه لا تفاوت بينهم في الكرامة هذه
إلا بالتقوى وما التقوى إلا بالأعمال الصالحة التي تكفل للانسانية سعادة الدارين .

وقال رسول الله ﷺ : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ..
التقوى هنا . . ويشير إلى صدره ، بحسب أمرىء من الشر أن يحقر أخاه
المسلم . . كل المسلم على المسلم حرام . . دمه وعرضه وماله . . وقال ﷺ :
لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب
أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ، فقال ﷺ : أن الله جميل يحب الجمال .
الكبر بطلر الحق ، أى دفع الحق ورده .. وغمط الناس أى تحقيرهم وأزدراءهم ..
وخطب ﷺ أوسط أيام التشريق فقال : أيها الناس إن ربكم واحد وأن
أباكم واحد ، الا لا فضل العربى على العجمى ولا لجمى على عربى ولا لأحر
على أسود ولا لأسود على أحر إلا بالتقوى إنا أكرمكم عند الله اتقاكم ،
الا هل بلغت ، فقالوا . بلى يا رسول الله قال فليبلغ الشاهد الغائب . .

ولست الدعوة إلى تكرّم الانسانية والوفاء بحقوقها قاصرة على ما يكون
من المعاملة بين الأحرار بعضهم مع بعض بل هى دعوة عامة تشمل الأحرار
والرقيق على سواء ، فقد أعلن ﷺ الأحرار بأن خولهم من الرقيق اخوانهم
وأمرهم أن لا ينادوهم بما يؤذى انسانيتهم كقولهم ياعبدى يارقيق كما أمرهم أن
يعلموا رقيقهم بما يأكلون وأن يسقوهم مما يشربون ، وأن يحسنوا إلى
الانسانية بإحسان معاملتهم والرفق بهم فلا يكلفوهم ما لا يطيقون . .

ولست الدعوة إلى تكرّم الانسانية والوفاء بحقوقها قاصرة على ما يكون
من المعاملة بين معروفي الأنساب بل هى دعوة عامة تتناول معروفي الأنساب . .
ومنقطعى الأنساب على السواء . . فتقطع النسب ليس إلا آدميا له ولثبته إله

واحد وأب واحد والإنسانيته كرامتها كالتى لسواها .. والله جل قدره يقول :
فى شأن الأديعاء (قال لم تملوا آباءهم فأخوانكم فى الدين ومواليكم)

ولست هذه الدعوة قاصرة على ما يكون من المعاملة بين المسلمين أصحاب
الدولة بل هى عامة فتناولهم تناول كل مواطن لهم وإن كان على غير دينهم .
فالمواطن غير المسلم له آدميته وإنسانيته وأن لهذه الإنسانية ما لسواها من
التكريم والحقوق ..

ولغير المسلم فى دار الإسلام بما له من عهد وندمة ما للمسلمين من
الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات .. ورسول الله ﷺ يقول : من ظلم
معهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فانا
حجيجه يوم القيامة ..

هذا هو المنهاج الإسلامى ، وتلك هى تعاليم الحكيمة فى تكريم الإنسانية
والوفاء بحقوقها بين الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم
وطبقاتهم .. وأن تعجب فمعجب أمر هؤلاء الأقوام الذين لا يرضون عن هذا
المنهاج وغيرهم ما أوتوا من قوة مادية جافة فزعموا أنهم قادة ركب الحضارة بينما
هم يمتنون فى امتهان إنسانية السواد الأعظم من الناس ، ويفرقون فى التفرقة
العنصرية وآفامها وما تنجره من المصائب والكوارث على الأقطار التى ابتليت
بهم .. فاللهم لطفًا ببادك يا أرحم الراحمين واكشف عن الإنسانية هذا
البلاء المبين ..

العمل والكسب

المنهج الاسلامي منهاج دين ودنيا ، منهاج معاش ومعاد ، ما ترك رابطة من الروابط ولا صلة من الصلات ، إلا تولاهما بأفضل الرعاية ، ولا ناحية من نواحي الحياة إلا نظم شئونها خير تنظيم ، فضلا من الله ونعمة على عباده ، ليبين لهم الصراط المستقيم ، ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، ومما أولاه هذا المنهج أكبر عنايته شئون العمل والكسب ، فحرض فيها . وحرم ، وجب وكره ، ورغب ورهب ، ليكفل للأفراد طيب الحياة ، وصالحها ، في عزة وكرامة ، تصون عليهم ماء الوجوه ، وتقيم ذل السؤال . . وازدراء الآخرين ، وضجرهم . . وليكفل للمجتمع القوة والمنعة ويسر له أسباب الارتقاء ، والتقدم والحياة الكريمة الفاضلة ، وليمكن له في الأرض ، وتمطيع في النفوس هيته ومكاته ، فحرض على كل قادر أن يعمل ويعجد ويسعى في الحصول على رزقه هو وأهله وولده ومن تجب عليهم نفقته ، وإن قصر في ذلك كان مضيقا لهم ، وكفى بالمرء أنما أن يضيق أهله وولده ومن يسول ، وواجب على كل قادر أن يعجد ويعمل ليؤدي ما عليه لربه ولأمنته من الحماية والدفاع وتوفير أسباب الخير والسعادة ، وعلى كل أمرئ أن يعمل جهده طاقته ما هو مبسر له وفيه خيره وخير دينه وخير أمته أي عمل كان . فليكن هناك الأمراء والولاة والقضاة الذين يعملون على تدبير أمور الرعية واستقامه أمورهم واقامة العدل فيها ، وليكن هناك العالم والمتعلم الذين يشتغلون بالنافع من علوم الدين والدنيا لينشروا العلم والمعرفة ويرفقا بالأفراد والجماعات على سواء . . وليكن هناك للتاجر والزارع والصانع ومن يعمل في أي مهنة أخرى يسول نفعا إليه وإلى أمته ، ومن لم يكن ذا مال وأخذ إلى البطالة والكسل وآثر الراحة على العمل ، فقد عصى ربه ، وضيع نفسه وذويه ، وتعرض لذل السؤال وقبيل الفضلات ولا نصيب له بين الناس الا الاحتقار ، والبهزية ، والتبرم به والعجز منه وكان عبلا على غيره . ومن كان ذا نعمة

وأعرض عن الأعمال النافعة التي يستطيع القيام بها كان عضوا اشل في مجتمعه ،
وقل الا تكون ماقبة أسره الاتقماس في اللهو والشهوات والانحدار إلى الدرك
الأسفل وضياح الدين والحلق والكرامة .

والله جل قدره قد أمر بالعمل والكسب وحض على السعى في طلب الرزق
وابتغاء فضل الله ، فقال جل شانه : (هو الذي جعل الأرض ذلولا فامشوا في
مناكبها واكلو من رزقه واليه النشور) . وقال تعالى . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا
في الأرض وابتغوا من فضل الله) . وراعى جل حكته الساعين في طلب الرزق
كراعى المرضى والمجاهدين في التخفيف من أعمال العبادة فقال جل شأنه .
(فاقروا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى . . وآخرون يبغثون
من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه) .

وقد أمتن الله سبحانه على عباده بأن يسر لهم أسباب العمل وأوقاته في البر
والبحر وطالبهم بشكر هذه الأنعم فقال تعالى : (ولقد مكناكم في الأرض
وجعلنا لكم فيها معاش) (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من
فضله أنه كان بكم رحيا) (وجعلنا الليل والنهار آتين فمحونا آية الليل وجعلنا
آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم) .

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال . لأن يحتطب أحدكم حزمة على
على ظهره خير له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنه . وروى البخارى أنه عليه
ﷺ قال : ما أكل أحد طعاما قط خيرا له من أن يأكل من عمل يده ، وأن
نبي الله داود كان يأكل من عمل يده . . وقال صلى الله عليه وسلم : أن أطيب
ما أكل الرجل من كسبه وأن ولده من كسبه . .

في الحديث الناجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وفي الخير
من طلب الدنيا حاللا تغفعا عن المسألة وسعيا على عياله وتعففا على جاره لقي
الله وجهه كاقصر لية البر . . وقال عليه الصلاة والسلام : طلب الحلال
جهاد . . وأن الله يحب العبد المحترف . . وجاءه رجل من الأنصار فسأله
فقال له صلى الله عليه وسلم أما في بيتك شيء ؟ قال بلى 11 جلس تلبس بعضه

ونيسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء ، قال : اتنى بهما ، فآخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل أنا آخذها ، بدرهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يزيد على درهم . قلما مرتين وثلاثا قال رجل أنا آخذها بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، فأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصاري ، وقال : اشتري بهما طعاماً فأنبذه إلى أهلك ، واشترى بالآخر قدوماً واتنى به ، فأتاه به فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً يده ثم قال : اذهب فاحتطب وكل ولا أرينك خمسة عشر يوماً ففعل وجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً ، فقال له رسول الله ﷺ : هذا خير لك من أن تأتى المسألة تنكته في جبهك يوم القيامة ..

وقد قطع قوم فقالوا : إن العمل ينافي التوكل على الله فعزلوا وحادوا عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وما جرى عليه السلف الصالح وقد نبي أمير المؤمنين حمير رضي الله عنه ناساً من أهل اليمن فقال : ما أتم ؟ قالوا : متوكلون قال : كذبتهم ، أتم متأكولون ، إنما المتوكل رجل رجل التي حبه في التراب وتوكل على رب الأرباب كما قال رضي الله عنه لا يقعد أحدكم عن طلب رزقه وهو يقول اللهم ارزقني فقد علمت أن السقاء لا تطرذها ولا فضة ، وقد سئل الإمام أحمد رضي الله عنه عما نوه به هؤلاء اخذوا من قوله ﷺ . لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير فتندو خفاً وتروح بطاناً ، أي تنهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع وترجع آخره ممثلة البطون ، فقال رضي الله عنه : ليس في الحديث دلالة على القعود عن الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق ، إذا لمزاد أنهم لو توكلوا في سبيلهم كما تسمى الطير لرزقهم الله كما يرزق الطير متى سعت فتندو خفاً وتروح بطاناً .

النواحي الاجتماعية

المنهاج الاسلامي قد اتجه بالانسان وجهة السداد والرشاد ، وجهة سلامة القلوب وصفاء الأرواح ، وجهة الإيمان الحق ، والعقائد الصحيحة ، وتطهير النفوس من أدران الشرك والوثنية ، وجهة الأعمال الصالحة والتخلي بمكابر الأخلاق ، والسعي الخثيث الى الكمال الانساني عن طريق العلم والمعرفة ، وكل ما يعود خيره أولاً ومباشرة الى المرء نفسه ، وذويه الأقربين وإن كان حظ مجتمعه عنه ليس بالقليل ، قد اتجه به أيضاً وجهة صالحة رشيدة .. وجهة أن يكون مواطناً صالحاً ، ولبنة سليمة قوية في بناء المجتمع الذي يحيا ويتقلب فيه فسن له حكم الشرائع وبين له أفضل الحلول ، وهو علي الدوام يذكر الناس بما بينهم من رابطة الاخوة ، فيما ينلى عليهم من كتاب الله تعالى ، ويروي لهم من سنة رسول الله ﷺ إخوة النسب ، وإخوة الدين ، وإخوة الوطن ، والاشتراك في المصالح ، وإخوة الانسانية ، ويدعوهم الى اتباع ما تمليه هذه الاخوة من صفاء النفوس ، وسلامة الصدور ، والتعارف والتآلف ، والاحسان في المعاملة والمعاشرة ، والتعاون على البر والتقوى ، واجتناب الآثم والعدوان ، والابتعاد عن انتهاك الحرمات والحقوق ، فحرام على كل امرئ أن يستدي على دم أخيه بقتل أو جراحة ، ومن فعل شيئاً من ذلك اقتص منه ، ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وحرام على كل امرئ أن يستد ، على عرض أخيه ، فلا يحل له أن يصيب إنثاً من أهله وذويه ، ولا يحل أن يرميه بالفاحشة ، ولا يحل له أن يفتابه ولا أن يهته بأكاذبه ولا يحل له أن يهزمه ولا أن يلزمه ولا أن يؤذيه بالسوء من القول ، ولا يحل له أن يتجسس عليه ليقف على ما أخفى من شئونه ، ورغب في ستره عن الناس ، وحرام على كل امرئ أن يستدي على مال أخيه ، وأن ينال منه أى شئ دون إذنه ورضاه بأية وسيلة من الوسائل ، فلا يحل له أن ينال منه شيئاً اغتصاباً أو سرقة أو نصباً أو جحداً لودية وأمانة ، أو انكار لما له عليه من الديون إلى غير ذلك

من الوسائل ، ولا يحل له أن يؤذيه في ماله بما يؤدي إلى كساد سلته وبيع
تجارته فليس له أن يسوم على سومه ولا أن يبيع على يمينه بأن يعمل على قصه
ليبيع هو المشتري سلته ، ولا أن يسلك معه طريق التجسس وهو أن يزيد
الإنسان في ثمن المروض للبيع للتفرير بالمشتري وخديعته ، وحرام على كل
امرى أن يظلم أخاه في أى حق من حقوقه ، من طريق الحكم والقضاء أو من
أى طريق آخر . فالظلم مرئيه وخيم ، ولا طاعة له إلا قبل العدالة ، وذهب ربح
الأمن والطمانينة وأشاعة الفساد في الأرض ، وحرام كل امرئ أن يحسد أخاه
على ما آتاه الله من نعمته كرها لتفضل الله عليه وتمنيا لزال نعمته عنه فليس من
وراء الحسد إلا غل الصدور وتنافر القلوب وخرقة الكلمة ثم القتل والموان .

ولهذا كان من كبائر الإثم أن يعمد المرء إلى ما يثير البغضاء في النفوس ،
وما يؤدي إلى التدابر والتقاطع من أى لون كان ذلك ، وفي طليعة ذلك سخرية
القوم بالقوم ، وسخرية النساء بالنساء ، والتأذي باللقاب وتخضير المرء لأخيه
وتمايله عليه بما فضله الله به عليه من قوة أو مال أو حسب أو جاه تماشيا أنه أخوه
في الإنسانية وأن أباهما واحد وأنه لا فضل لمرئى على عجمي ولا لعجمي على
عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأحر على أفسر إلا بالتقوى وأسلح الأعمال ،
التي يود خيرها إلى الإنسانية ، وقد تناول كل ما ذكرت ماروى مسلم في صحيحه
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تحاسدوا
ولا تاجسوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ولا يخب بعضكم على بعض ، وكونوا
عباد الله إخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا
يحقره ، التقوى ههنا ، يشير إلى صدره ثلاث ميزات ، بحسب امرئيه من الشر
أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه .

والمنهاج الإسلامى لم يقف بالإنسانية عند هذا الحد السلبى ، حد الكف عن
الظلم ، والأذى بسائر ألوانه ، وجاء بالأمور ائناقة التي تملأ الإخوة الصادقة ،
ويقوم عليها صالح الأفراد والجماعات ، وتحمي نظام الدولة أن من يناله شيء من
الخلل والوهن . فأمز الله سبحانه الأفراد أن يمتصوا بحبل الله جميعاً لتجتمع
قلوبهم وتتوحد كلمتهم ويكونوا يدا واحدا وتعملو مكاتهم ، وضرب لهم في ذلك

أحسن الأمثال قبيأهم أن كل واحد منهم للآخر قوة ومعة وأنهم كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، عليهم أنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحلمى والسر . ونهام عن التفرق حتى لا يشلوا وتذهب ريمهم ، وأمرهم بالتعاون على البر والتقوى ، ونهام عن التعاون على الإثم والعدوان وأمر كل امرئ أن ينصر أخاه إذا أصابه ظلم أو وقع عليه عدوان ، ونهاء عن خذلانه وإسلامه متى ألت به مله ، وكان فى مقدوره أن يقوم بتصرته ، كما أمره بتفريج كربة المكرب ، وأمر الميسرين أن يسروا على إخوانهم المصرين . . وهو واجب عليهم من الإنفاق أو بالصدقة أو بالأفراد .

وأوجب على الكافة حفظ النظام وإطاعة التشريع وأن يحمل كل منهم غيره على ذلك وتلك هى إطاعة الله ورسوله وأولي الأمر ، وهى النصيحة لهم ولعامة المسلمين .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، وقال عليه الصلاة والسلام : الدين النصيحة ، فقالوا لمن ؟ قال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

الدين النصيحة

حرص المهاج الاسلامي الحرس كله على إسداء خالص النصيح لسد الخلل والتوجيه إلى الخير المستقيم ، وعلى احكام الصلة بين الراعى وورعيته ، اتسع نطاقها أو ضاق وعلى احترام الشرائع وتنفيذ أحكامها في اخلاص اقامة للمعدل وصونا للنظام الصالح واجتنابا لاسباب الخلل والانحلال . ويجمع كل هذا وما أكبر منه ما روى مسلم في صحيحه ، عن تميم الداربي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدين النصيحة : قلنا لمن ؟ قال : . الدين النصيحة : قلنا لمن ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ولأئمة المسلمين ، وعامتهم .

والنصيحة في الأصل معناها التصفية والتقية ، والاصلاح وسد الخلل واستعملت في كلام الله تعالى وفي ، المطهرة ، وفي كلام العلماء وسائر الناس بمعنى : الاخلاص في العقيدة والعمل ، والاخلاص في المشورة ، الصادقة ، وفي التوجيه الصالح ، وفي الارشاد إلى طريق الخير والتحذير من الوقوع في الشر ، وذلك هو معنى النصيحة في الحديث الشريف الذي رواه .

والنصيحة قد جعلها هذا الحديث الدين كله لأنها عماد وقوامه متى راعينا ما تعلق بها وارتبطت به . ورد في الحديث اثنى تناول صلة العبد بربه وصلته بدستور الأمة المحمدية وشرعة الله المحسنة ، وصلته بالصادق والأمين ، الهادى إلى الصراط المستقيم ، مخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وصلة المحكومين بالخائكين وصلة العامة وسواد الناس بعضهم ببعض ، فهو حديث جامع عظيم الشأن تناول كل نواحي الحياة ، وما فيها من الصلاة حتى قال : العلماء بحق أن عليه مدار الإسلام كله .

والنصيحة لله جل قدره هي الاخلاص الكامل في الإيمان بوجود ذاته

العلية وبوحدايته لا يشرك به احد وباتصافه بسائر أوصاف الكمال وتنزيهه عن كل شائبة من شوائب النقص ، لا يبد إلا هو ، ولا يستعان إلا به ، ولا يلتمس الهداية عند غيره ، مع الاخلاص في الإيمان بالنبى وتصديق كل ما وعد به وإطاعة أوامره واجتباب نواهيته ، فن أدنى ذلك وأقامه كان لله سبحانه من التناهيين ، فإ النصيحة لله إلا الاخلاص له فى العقائد وفى الأعمال .

وكتاب الله تبارك اسمه هو القرآن العظيم نزل على رسوله صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق فيه الإيمان الصحيح والعقائد الحقّة ، وفيه الإيمان وخير الدارين ، وفيه العبرة ، البالغة والموعظة الحسنة ، وفيه مكارم الأخلاق والآداب السامية وفيه الشرائع المحكّمة وفيه تبيان كل شيء .

والنصيحة لكتاب الله هى الاخلاص الكامل فى الإيمان بأنه من عند الله وكلامه ، وفى التصديق بكل ما جاء به وفى التأدّب بأدابه ، والتحلّي بأخلاقه ، وفى إقامة فرائضه ، واجتباب محارمه ، وللتزام حدوده . وفى الاعتقاد أنه الآية الكبرى والمعجزة العظمى الباقية ما بقى الدهر .. ثم الاخلاص فى توقيره وتعظيمه ، والتعبد بتلاوته ، والاستماع له والانصات إذا قرئ . وفى التأدّب برفيع الآداب عند سماعه وعند تلاوته .

ورسول الله عز شأنه هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، أرسله ربه إلى الناس جميعاً ليبلغهم ما أنزل إليه من ربه قرآنًا أو وحيًا آخر ، وليبين لهم الآيات ويفصل لهم الأحكام ، والنصيحة له عليه الصلاة والسلام تكون فى حياته وبعد مماته وتكون بالإيمان برسائه ، وتصديق كل ما جاء به ، وبالاقتداء بهديه ، وبالاقتداء بسنته وكل ما يكون نصيحة لله ونصيحة لكتابه .

والأمراء ، جمع أمير ، وهو كل من له إمرة وسلطان على غيره ، قبل العدد أو أكثر والأمر على مراتب متفاوتة تبدأ برعاية المرأة لبيت زوجها وولده ، وتنتهى بالإمارة العليا إمارة الدولة ورئاسة العظمى ، وكل الإمارات من الضروريات الاجتماعية ، ولا يستقيم أمرها إلا إذا سادت النصيحة على جميع أطرافها ، فالأمراء على اختلاف مراتبهم مطالبون مع غيرهم بالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ومضى

تحلوا بهذه الفضيلة العظيمة الخير جميع رعيته ، وكان مجتمعهم مجتمع رحمة واشفاق ، وعدالة وحزم ويسر ورخاء ، وتقدم مضطرد .

أما نصيحة الرعايا لهم فلها ضروب شتى يقع في طليعتها إطاعة أوامرهم وتنفيذ أحكامهم والحفاظ على مالم من هبة وكرامة ، وقيل متابعهم في الحكم ما استقاموا الربهم ، ولم يأمروا بمعصية متيقنة ، والتزام هذا ، وإن كان هناك ما يكره ، خير للجماعة من تفرق الكلمة وسيادة الفوضى بسبب اختلاف الأهواء وتباين الآراء . . .

يرشدنا إلى هذا قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم) والأمراء هم أولوا الأمر ، أو هم من بينهم لما ترشدنا إليه الأحاديث الكثيرة التي رواها البخاري ومسلم وقوله ﷺ : اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زينة .

وقوله ﷺ لأصحابه : سترون من بعدى أثره وأمورا تتكرونها ، قالوا فيماذا تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم . وقال : من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصره فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت الأمات ميتة جاهلية ، وقال : السمع والطاعة علي المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . .

(٢)

الدين النصيحة هو الحديث الذي قال فيه النساء أنه من جوامع الكلم ، وأنه حديث عظيم الشأن عليه مدار الإسلام كله ، جمع في إيجاز أصول تعاليمه الرشيدة ، التي تناولت كل الروابط أفضل تناول يكفل للمجتمع الانساني اسباب الخير والفلاح ، وقد بينت أن النصيحة لأمرء المسلمين تقع على ضروب شتى نتيجة في طبيعتها طاعة المحكومين للحاكمين وتنفيذ ما يأمرون به الرعية إقامة لأمانة الحكم التي حملوها ، ما لم يأمروا بما هو كفر بواح ، او بمصيبة أخرى متيقنة ، او باى أمر يكون انتهاكاً صارخاً لحرمة القانون واجب الاتباع .

ومن ضروب النصيحة التي يجب أن تؤديها الرعية للأمرء الاخلاص التام في اعانتهم على تطهير مجتمهم من امراضه ، والقضاء على عيوبه وتقبته من كل ما علق به من الشوائب ، وعلى الوصول به إلى المستوى الكريم . لحق علي كل امرئ ألا يقف عند طاعته هو للقانون وأمثاله لأوامره المشروعة ، وعليه فوق هذا أن يعمل جاهداً على وأد ما يستطيع وأده من أسباب الفتنة والنفاق ، ومحاربة ما يستطيع محاربته من ألوان البس والتأمر جل أمرها أو صغر ، ومقاومة ما تنطلق به ألسنة السوء من الأراخيف وكل ما من شأنه أن يشيع في الدولة الفساد والانحلال ، حتى يكون عوناً صادقاً لأمرائه ، وناصحاً أميناً لهم مهتدياً في هذا بهدى بارئته وحق على كل امرئ أن يرفع إلى أمرائه ما يقف عليه من انتهاك الحرمات وتمدى الحدود وما يقع عليه وعلى غيره من جور الولاة والمال وعسفهم ماملاً على إصلاح مجتمعه واستقامة أموره فان قام بهذا كان من الناصحين ولا عليه بعد أن يستجيب له بحجب أو تخيب له مسعى ، فقد أدى ما عليه من واجب النصيحة ، وإذا قصر الآخرون كان الله عليهم حسيباً وحق على كل امرئ أن يخلص في مشورته لأمرائه إذا استشاروه أو استطاع إليها

سيلا ، وان لم يندب لها ، فالعمل على صلاح أمر الجماعة واجب على الجميع ، وصلاح هذا الأمر حق للجميع ، وخيره إلى الجميع ، وعليه ألا يصدر في مشورة لهم إلا عن درس وتمحيص ، وتقلب للأموار وبعد الوصول إلى الرأي الحصيف ، فذا هو الرأي يرحى خيره ، وبه تكون النصيحة الحقة ..

أما المشير يدفعه المتسرع ، أو يستويه حب الظهور واقتراع البناء أو الوصول إلى ذا أو ذاك من منافعه الخاصة فيأدر إلى المشورة للقبحة والرأي القطير ، فهو في الأعم الأغلب أبعد ما يكون عن معنى النصيحة ، وعن إصابة الرأي المستقيم ، فلا خير في هذا من المشيرين ، وقد كانوا ولا يزالون موقى اصلاح وعوامل خلل واضطراب . : وحق على كل إمريء يرى في أمراة اثره ، أو قصيرا في واجب عام أو انحراف عن الطريق السوي ، أن يعدل على تقويمهم متى كان آهلا لذلك ، وكان في استطاعته القيام ، وكان الخير من وراء نصيحته ، فإذا ذاك عليه أن يسلك سبيل الموعظة الحسنة ، وأن ينصح بالتي هي احسن ، وإن يكون حازما في غير عنف ، لا يشبع شناعة ولا يثير قته .. اما إذا لم يرج خيرا ، وخشي النائرة والشر فلا نصيحة عليه ، وما سبيله إذ ذاك إلا قول الله جلّت حكته (عليكم انفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وقوله : عليه الصلاة والسلام في ولاة الجور والآثرة : أدوا لهم حقهم واسألوا الله حقكم ، وعليهم التزام الصبر على البلاء وانتظار الفرج .

هذه هي النصيحة لأمرء المسلمين ، وهذه سبيلها وذاك ما يمكن أن تؤديه للجمتمع من الخير والسعادة ، والمسلمون الأولون قد فهموا مكانة هذه النصيحة حق الفهم فما قصروا وما توانوا في القيام بها ، كما كان الأمراء أنفسهم يتسبونها عند رعيتهن وبطالبنهم بها ، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه وارضاه يقول : في اول خطبة له بعد ان بويع بالخلافة : ايها الناس : وقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فاعينوني وإن أسأت فقوموني . وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول له رجل من رعيته : إتق الله يا عمر : وأكثر عليه فقال له قائل : أسكت فقد أكثرث على أمير المؤمنين . فقال له عمر : دعه لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إن لم تقبل ، وخطب يوما فقال :

أيها الناس : إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والموعظة على الخير ، وخطب
مرة أخرى فقال : أيها الناس إنى ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم
ولا ليأخذوا أموالكم ، وإنما أرسلتهم اليكم ليعلموكم دينكم و سنتكم ، فمن
فعل به شيء من هذا فليرقمه الى فواقى حتى عمر يده ، لأقصنه منه ، وقد جاء
من بعدهما بالكثيرون أمراء المؤمنين . . وقد كانوا من العلماء والفقهاء ،
فكانوا كأسلافهم يلتمسون النصيحة من رعيتهم ، كما يلتمسون الهداية والنصح
والموعظة والتذكير بأحكام الله وما أعله لمباده ، وعند أئمة الدين ويلحون عليهم
في غشيان مجالسهم لهذه الغاية النبيلة ، لافى شئون البوالة العامة فحسب ، بل فيما
يرجع إلى شئونهم الخاصة أيضاً ، وكانت أعينهم تفيض من الدمع تهديدا لمظلم
المستولية وفرقا من التقصير وتضييع الرعية بأمثال هذه الرعية وبأمثال هؤلاء
الأمراء آتت النصيحة أكلها وصلاح المجتمع الاسلامى أيعا صلاح وبلغ ذروة
الحضارة ، وكان أهله خير أمة أخرجت للناس . .

النصيحة

كيفية النصيحة :

أما النصيحة العامة للمسلمين فواسطة الأبواب ، كثيرة الشعب ، مختلفة المسالك وعلى من يئذل النصيحة العامة أن يبدأ بنفسه فينصح لها ، فهي أولى به ، وهو أولى بها ، وهو إذ ذاك الناصح الأمين ، الذي يقتدى به ويرجو الناس الهداية من جانبه وتلتبس النصيحة عنده ، ويصل قوله الى القلوب فيجلوا صدأها ، ويذهب غشاوتها وتثمر نصيحته أجدود النجار ، ويؤتي أجره مرتين ، وله اللذة الكبرى ، ولذة النجاح والتوفيق .

أما من أهمل النصيح لنفسه فذاك هو الناصح المزوءة لا يرحى لنصيحه خير ، وليس له من ورائه إلا السخرية البالغة من هذا النصيح ومن تلك الصفاقة لما ظنك بتارك الصلاة ينصح لغيره بأن يؤديها في أوقاتها وما ظنك بمقطع الأرحام ينصح لغيره بصلة رحمه وما ظنك بمخمور ينصح لسواه بالتتره عن الشراب وما ظنك بلص ينصح لسواه بمراعاة الحرمة لأموال الناس والتزام الحفاظ عليها ..

إن هؤلاء وأمثالهم لا خير فيهم ولا في نصيحهم الذي لا يلقي سوى الأعراض وينفر من النصيحة نفسها أي نصيحة كانت ، ومن مصائب المجتمع الاسلامي في كل العصور إن كان فيه هذا المرض فتصدى لنصح طامة المسلمين من لا ينصح لنفسه ، يترى زى العالم الواعظ أو يلبس لباس المتصوف الناسك ، لام له إلا الوصول إلى أغراض خاصة ومنافع ذاتية فلم يكن داعية لهداية وكان من رءوس النفاق وأئمة الضلال وهم من أخوف ما أخوف رسول الله ﷺ على أمته . وإن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده فكان ولا يزال طوائف من الأمة ظاهرين على الحق هم أهل النصيحة وأحق بها .

أن الرزية كل الرزية أن تصدى للنصيحة من ليس من أهلها ولا يحسن القيام بها قد تكون النصيحة في شأن ما هو معلوم من الدين بالضرورة ولا يخفى أمره في دار الإسلام على أحد من أهله فكل من توفر له عقله وادراكه وفهمه للفضائل والردائل لا ريب في أنه أهل للقيام بالنصيحة في مثل هذه الشئون وهي حق واجب عليه لسواء ..

أما إذا كانت النصيحة فيما يتجاوز هذا النطاق لا يكون أهلاً لها إلا من يفهم موضوعها حق فهمه ويحسن القيام إحساناً تاماً ، وإن لم يكن على هذه المشاكلة كان ممن يهرفون بما لا يعرفون ويخطون خبط عشواء ، وما مثلهم إلا الاعشى تصدى لقيادة العطارات .. والسيارات والجاهل بالصحراء ومدخلها ومخارجها ومسارها بتقديم القافلة في تلك الصحراء ليكون دليلها ومرشدها ..

ومن أقدم على نصيحة غيره بما لا يعرفه من دين الله كان مرتكباً لكبائر الآثام ، مخالفاً لقول الله عز وجل (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) وقوله جل قدره (ولا تقولوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام ، وما هو إلا من جهة الملأين وما جنى المقنتين ، الذين أجمع أئمة الدين على وجوب الحجر عليهم منذ ظهر أمرهم ..

ولقد كانوا قديماً وحديثاً وكان من بينهم طائفة من القصاص كانوا من أجهل الناس بدين وبما يزوالونه من النصيح وارشاد العامة لا هم لهم إلا الارتزاق لا يبالون بما عداه فأكثرُوا من وضع الحديث والكذب على رسول الله ﷺ لا يبالون بالحديث المشهور المتواتر معناه من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، وكان من بينهم قوم من الجهال أكثرهم من الأميين ألصقوا أنفسهم بالتصوف والمتصوفين ، ووضعوا أنفسهم في محل القيادة والارشاد ، واتحلوا لأنفسهم ولاية الله ، وهداية من يريدون أن يسلكوا طريقهم إلى الله فلتلوا نفوس أتباعهم بالخرافات المنكرة ، ولقنوا أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان لا يعرفها فقيه ولا متقف غير مباليين بقوله ﷺ : من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد عليه وكان بينهم أقوام لم يتفقهوا في دين الله وشرائعه ، ولا يعرفون عنه ولا من أحكامه إلا ما يعرفه بسطاء العامة ، ومع هذا يكونون من أنفسهم حجاجات يصقونها بانها

جماعات إسلامية وينتخرون لها الأسماء البراقة المغرية ويترعون أنهم خير النصحاء ، وأنهم حفظة الدين والقوام على اتباع أحكامه وتنفيذ تعاليمه ، سلطان منحوه لأنفسهم وولاية عامة على المسلمين لا يدرى من أين جاءتهم ، وهم في ظلها يدخلون فيما لا يحسنون ، ويتقلبون في الضلال ويتربعون في أفق فوق علماء المسلمين ، ينهشون الأعراض ، وينحون على من شاءوا من المسلمين والمسلمات يفسقون من أرادوا تهسيقه ويكفرون من شاءوا تهكيره وكثيراً ما أظهرت الأيام أن من رؤساء هذه الجماعات من كان به نس من الجنون .. فثم من قال : للإمام أحمد في مسجد من مساجد بغداد ، حينما محمه يكتنب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث يرويه عنه فسأله في ذلك انك أحق ، ليس في الدنيا في اسمه احمد بن حنبل سواك ، ومنهم من يقول : ما اتخذ الله من ولى جاهل ولو اتخذه لعلمه ليثبت لنفسه علماً لديناً يبيد عن مجرى العادة ، ومنهم من يقول : إن الدين الاسلامي دين لا أسرار فيه ولا وسطاء ، وهو مباح للجميع ، ومن حق الجميع أن يتكلموا فيه وفيه يستوى العلماء وغيرهم متجاهلين ما قدمت من الكتاب الكريم .

وقوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقوله جل شأنه فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (وما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين من ألا ينازعوا الأمر أهله) وما يجري على لسان الكفاة من قولهم : إنما العلم بالتعليم ، ولكن ما لهذه الطوائف ولهذا كله انهم لا تنهم سوى أهدافهم وليس بينها النصيحة . وهكذا قدر فكان ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يقول : إن الله لا يقبض العلم اقتزاعاً ينتزعه من المباد ولكن يقبض العلم قبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساجها لا فسلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا . ومنازعة الجهال العلماء أسوأ من هذا عاقبة وإلى الله المصير .

النصيحة لعامة المسلمين

النصيحة لعامة المسلمين من قوام الدين ، وهو حق واجب لهم على كل من كان أهلاً لها مستطیعاً لأدائها ، أمیراً كان أو والياً أو عاملاً أو من سواد الناس ، أمان من لا يستطيعها أو ليس أهلاً لها ، ف عليه أن يلزم خاصة نفسه وإلا يشغلها بما لا يرجى خيره أو تخشى مغبته فعل من يريد بذل النصيحة لسواه أن يكون القدوة الحسنة بالمثل الصالح وبخاصة فيما ينزل النصيح فيه ، فذلك الذى يصل إلى القلوب ويستوى الأئمة ، ويشكم فى المشاعر ، وعلى الناصح الأمين أن يكون على بينة فيما يشير به من أمور الدنيا ، وعلى علم تام بما ينزل فيه النصيح من أمور الدين ، وإلا يدخل فيما لا يحسن القيام به ، وإلا كانت سبيله عفوطة بالأخطار ، وكان إلى الضلال أقرب منه إلى الهدى ، وكان أهم نصحه أكبر من نفسه ، وكان كمن يقول فيهم العلم الجدير ، (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) فما نصيحة الجاهل إلا جدال فى غلام وخطب فى الأمور بغير علم ولا هدى .

وعلى الناصح الأمين ألا يذهب فى نصحه مذاهب الشدة والعنف ، وإلا يسلك فيه سبيل التأنيب ، والتفريع ، والافراط فى اللوم والتشهير ، فذلك مسلك أبعد ما يكون عن مسالك النصيح وحب الخير ، وما هو إلا مسلك الحاقد الناقم وأنه الفرصة لاستجواب لضفة أو مسلك ذلك السلطان المعاقب ، لا مسلك المهادي المرشد وهو مسلك ليس من ورائه إلا ضياع الجهود ، والأعراض عن النصيحة وعن التأمين وتناثر القلوب ، والناصح الأمين الحكيم هو من يسلك فى نصحه مسلك الموعظة الحسنة والمنطق السليم ، والإقناع والتبصير ، بمواقب الأمور يؤدى كل هذا بالكلم الطيب ، والقول اللين ، يفيض بالرحمة والاشفاق وحب الخير ، هذا هو الأحرى أن تستجيب له النفوس ، وأن يبلغ نصحه مبلغه وأن تحمد له صنائعه ، عند الله ، وعند الناس . . وهذه الطريقة المثل فى النصيحة

وما يشا كلها هي التي جاء بها ادب الكتاب الكريم وهي هداية الله عز وجل
لرسله وأنبيائه وعباده المخلصين ، فيقول تعالى لرسوله موسى وهارون
عليهما السلام .

إذهبا إلى قريعتين فإنهما تغف لكم ذنبهما ، فبما رحمة من الله لنت لهم ويقول
جل شأنه لأمام المرسلين صلى الله عليه وسلم (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت
فظا غليظ القلب لا نقصوا من حقوقك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في
الأمر) ويقول له ، (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم
بالتي هي أحسن) ويقول له (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن
فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) ويخاطب جل شأنه الكافة
بقوله : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم)
وبقوله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) .

هذا هو أدب الكتاب الكريم ، وتلك هي هداية الله جلت حكمته ، غير أن
المجتمع الاسلامي قد ابتلاه الله في القديم وفي الحديث بعض ما نصبوا أنفسهم
للتصح والارشاد ، وهم لا يحسنون إلا العنف والشدّة ، والتأنيب والتشهير غير
مبالين بمقابلة أسرمهم وفشل نصحهم والارشادهم ، زاعمين أن هذا حق للتصحاء .
ولازم من لوازم الحمية في الدين والنيرة على حدود الله ومحارمه ، فإذا ما هدوا
إلى الصواب لم يهتموا وإذا ما ذكروا بآيات الله أخذتهم العزة بالآثم وأخذوا
يتلون ما قال الله سبحانه في المشركين وما توعد به الكافرين والمنافقين ، ونسوا
أن هذا مقام الألوهية وأنه حق خالص لله وحده هو القاهر فوق عباده يخاطب
من يشاء بما يريد وليس ذلك لأحد من عباده في مقام النصح والارشاد ، ألا ساء
ما يصنعون وساء ما يفهمون ، اتحلوا لأنفسهم سلطاناً عاماً وخلوا بين النصيحة
وبين ما يصنع وإلى الأمر بالمذنب مستحق العقاب ، وما يعامل به العدو المحارب
فلو أنهم كفونا شر نصحهم ، وكفوا إذا هم وبلواهم لكان خير أئمة وللتناس ..

والنصيحة لعامة المسلمين حق وجب لهم بأخوة الإنسانية وبأخوة الاسلام . فهي
حق واجب للجميع ، القريب والبعيد ، الذكر والأنثى ، للصغير والكبير ، للشريف

وللوضع الفنى والفقير للحر والرفيق ، للأبيض والأسود والأصفر ، ولكل المسلمين أيا كانت إقامتهم مهما تفرقت ديارهم واختلفت منتمهم وسلطانهم ، يلتحق بهم من غيرهم كل من كان مواطناً لهم ودخل في ذمتهم فكان له ما لهم وعليه ما عليهم وبصلاح امره يكون صلاح امرهم ومجتمعتهم ، ولا مزية في ان حق ذوى الوشائج القرية والصلات الوثيقة في النصيحة اقوى وأكدر . وأولى الناس هؤلاء وهؤلاء بالرعاية موالاة النصيحة هم معشر اليافعين والشباب ، فهم اشد حاجة إليها ، وهم لديهم ابلغ اثرأ واجدى نفعا ، فهم معشر المعرفة الضئيلة والتجربة القليلة ، ومنهم من لا تحارب له ولشبابهم طيشة ، ولنفسهم نزواتها ، ولشهوواتهم شهرتها ، وهم في الوقت نفسه لا تزال احوالهم لينت وطباعهم طيبة ، وفطرتهم في طور السلامة والنقاء ، وما للنصيحة لهم إلا التعليم والتهديب . وصالح التوجيه ، والرقابة اليقظة التي لا تنام ولا تنفوا . فمن حقهم ان يؤدى إليهم هذا الواجب خير الآداء ، في كل وقت وحينما كانوا . . وإذا كانت وسائل رعاية الشباب ونضجه منها العام ومنها الخاص ، فان افضل نفعه لشبابنا ان يربى فيه الوازع الدينى منذ نشأته وما فضل الشاب الذى نشأ في طاعته الله بالفضل الذى مارى فيه إنسان .

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومن النصيحة لعامة المسلمين التي حملها الحديث النبوي الشريف الدين ، وقوامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة شئونها بين العامة وبين الخاصة في كل محيط فذلك هو الدين القيم وهو النصيحة الجامعة التي توثق أطياف القمرات . .

والمعروف هو ما ترفه النفوس الحيرة ، وتألفه بطورها التي تشوقها إلى طلبه والسعي إلى فعله وتحكم العقول السليمة بأنه خير ونصيحة . . .

والمُنكر هو ما تنكره الفطر السليمة وتفر منه بطبعها ، ويحكم العقل الرشيد ، بأنه شرور ورذيلة . . فالمعروف هو الخير والطهارة في الأقوال وفي الأفعال وكل ما يتصل بهما . . والمنكر هو الشر والرذيلة في كل هذا . . وإن شئت قلت إن المعروف هو ما امر الله به وفيه رضام ، والمنكر ما نهى الله عنه وفيه سخطه وغضبه ، فإن الله سبحانه تفضلاً منه بوجهه جاده لا بأمرهم إلا بما هو خير ونصيحة ولا ينههم إلا عما هو شر ورذيلة . .

ولا يكون الشر من المنكرات إلا إذا كان طلب الله سبحانه الكف عنه من الأمور البينة الواضحة التي قام عليها الدليل القاطع وما هو قريب منه ولم يكن مما اختلف فيه أئمة الهدى . . أما ما اختلفوا فيه فليس أحد الرايين أو الآراء التي أبدت فيها أولاً بأن يكون مبروراً وأن يكون غيره منكراً . . فالمعروف ما كان الأمر به متفقاً عليه أو ذهب إليه أحد الأئمة المقتدى بهم ، والمنكر هو ما اتفقوا على أنه منهي عنه فليس لأحد أن ينكر على آخر أنه تروج بنير ولي ويستهزئ بذلك من المنكر وإن كان بعض الأئمة يرى بطلان هذا الزواج وليس

لأحد أن يشكر على غيره أن يصلّي تطوعاً بعد صلاة العصر ، وإن كان بعض الأئمة يرى أنه محرم أو مكروه تحريماً ، هذا هو الضابط الذي يلجأ إليه لثبوت ما هو معروف يؤمر به وما هو منكّر ينهى عنه ، فليس من الدين في شيء إلا يقول المرء فيما اختلف فيه إلا على ما يراه إن كان مجتهداً أو على ما يراه الإمام الذي يقلده ، ويجعل وحده المعيار للمعروف والمكروه يأخذ الناس بسوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زاعماً أنهم على ضلال وإن كانوا متبعين لأئمة آخرين ، فليس هذا هو . هو النصيحة لعامة المسلمين ، وليس هذا أمراً بمعروف ولا نهياً عن منكر ، وما هو إلا المصيبة المذهبية المقتية ، وما هو إلا قتلة في الدين وضلال غير أن اختلف في شأنه حرمة وحله يكون من المنكرات إذا قضى بحرمته أو نهى عنه ولى الأمر مراعاة لمصلحة الرعية ، فمن قضى بالتفريق بينه وبين زوجته التي عقد عليها بنى ولي سارت مباشرته لها بعد أن انبرم هذا القضاء ولزم ، من المنكرات التي يجب النهي عنها ، وإذا نهى ولى الأمر عن طاعة شيء مما اختلف في حله وحرمة . وكان نية مراعاة لمصلحة الرعية وحيث طاعته فيما نهى عنه وصار تلطيه من المنكرات . . .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعظم هدف لبنة الأنبياء والمرسلين ، وأول واجب على من اعتدوا بهديهم وخلفوهم في أمرهم وقاموا على تنفيذ تعاليمهم . . ولو أهمل أمره لشاع الفساد وساد الاضطراب ، وعمت الأباكية والقوضي ، ولقد امتدحه الله سبحانه ونوه بشأنه وشأن القائمين به فأمر به وقرنه على النوام بأركان الدين وأشار إلى أنه ثمرة من ثمرات الإيمان . . . قد قال . . جل شأنه (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) فكان واجبا بهذا الأمر الإلهي وقال تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

وأشار هذا القول الكريم إلى أن الإيمان هو مصدر الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر من المؤمنين والمؤمنات . . . وامتدح جل شانه المسلمين الأولين فقال (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وذكر أنهم من الصالحين فقال : تعالي ذكره (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) وكما قرن الله ذلك بالإيمان إعلاء لمساكنه وبياناً لمقدار منزلته قرنه كذلك بالمحافظة على الحدود وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقال تعالى : (يا مروء بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤ بالمعروف ونهوا عن المنكر) الثابؤون العابدين الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والنهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) .

وقد حذر الله جل شانه من التهاون في ذلك بقوله : (واتقوا قسة لاصيين الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب) . كما لمن الذين أضاعوا هذه الحلال العظيمة فقال : جل ذكره : لمن الذين كفروا من بني إسرائيل علي لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية أخذنا من قوله جل شانه (ولتكن منكم أمة) فإنه يكون فرض عين علي من تبين له أو كان مشاهدا لوقوع المنكر ، فكل من شاهده كان عليه أن يمنع وقوعه أو يحول بين صاحبه وبين الاستمرار فيه من الوسائل المستطاعة التي يملكها فقد روى في الصحاح أن مروان كان يلعن من يلعن في خطبة الصلاة فإ كان للناس حيلة في خطبة الجمعة - أما خطبة اليبدين فهي بعد الصلاة وكان الناس ينصرفون متى انقضت الصلاة فقدم مروان

الخطبة على صلاة العيد فقال له قائل ان الصلاة كانت قبل الخطبة فقال له دعنا مما كان هناك فقال أبو سعيد الحدرى أشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره يده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان . . فإذا أدى واجبه على القدر الذى يستطيعه فلا عليه بعد ذلك أن يصل من يصل . وذلك قول الله تعالى : (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهديتكم) .

الفصل الرابع

الروابط الانسانية في الاسلام

كانت للناس جميعا نشأة واحدة في بدنها وعناصرها ، نشأة الماء والطين ، نشأة الصلصال المسنون ، نشأة النفس الواحدة التي خلق الله سبحانه منها زوجها وبث فيها رجالا كثيرا ونساء ولتناس جميعاً نمت واحد في توأدهم وتناسلهم وما يسبق ذلك وما يتلوه من أطوار . ولتناس جميعا معاشهم وموتهم في الحياة وآمالهم وآلامهم في أساليب قد تبدو مختلفة في ظواهرها ولكنها واحدة في جوهرها . ولتناس جميعاً المصير الواحد المحتوم ، ثم ما يتلوه من الحياة الأخرى تلك وشائج لا تدانيها وشائج اتفقت بها أخوة الإنسانية ، واحسنت بها روابط الصبر والنسب وقرابة الدم والتشابه في كل ما يقوم به امر هذه الحياة وهي روابط ادركناها بقولنا وفهمناها بقلوبنا ، ولا تنفك تراها رأى العين ما قلب الله الليل والنهار ، ولا يزال الكتاب الكريم يذكرنا بها ما تليت علينا آية : (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اثمهم بشر تنثرون) ، (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً) ، (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) ، (والله ابتعثكم من الأرض نباتاً ثم يسيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) ، (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) .

وكان من حق القرى والأخوة في الإنسانية ، ومن حق هذه الروابط المديدة المحركة ألا يصدر عنها إلا الخير وألا ينجم عنها إلا التمازج والتآلف والتعاون على البر ، وألا تكون معها شرور وذنابل ، ولا تقاطع وتماحر ، ولكنها النفوس وما فطرت عليه من أثر ، والقلوب التي استحوذ عليها الشيطان فأنساها كل رابطة مقدسة ، وباعد بينها وبين التعاليم الصالحة ، فأضيت أخوة الإنسانية بأفات مستحسبة ، تأتي في طليعتها آفة البنى والظلم ، آفة السعى في الأرض فناداً ، وهي آفة تصدر أكثر ما تصدر عن رغبة العيش وبسطة الرزق (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغاه لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير

صير) وعن الفرور والاعتزاز بالقوة والنفلة عن قدرة القوى العزيز الظاهر فوق عباده (إن قارون كان من قوم موسى فبنى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين قال : إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) ، وقد يكون البنى وسوسة من معتد أئيم وتديراً من باغ متسلط ، يوعز به إلى أعوانه ليفرق الكلمة وينقض الصفوف ويضرب الأخ بأخيه ، ثم يفتقر الجميع .

والبنى قد يكون من الإنسان على أخيه ، وقد يكون من الحاكم على محكوميه وقد يكون من طائفة على أخرى ، والبنى شر كله وهو بيض ومنفوم عند الله وعند الناس (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبنى والقربى وبنى عن الفحشاء والنسب والبنى يظلمكم لأنكم تذكرون) ولئن اتصرت بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبنون في الأرض بنى الحق أولئك لهم عذاب أليم) فإذا كان البنى فتنة لأحد المقربين فد ينه إليه الله جلت حكمته بما يضرب له من الأمثال (إن هذا أخى له تسع وتسعون نسجة ولى نسجة واحدة فقال : أكفلنّها وعزّنى فى الخطاب قال : لقد ظلمك بسؤال نسجتك الى نالجى وإن كثيرا من الخلفاء يبنى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وحملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما قتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأتاب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلقى وحسن مآب) .

وإذا كان البنى من طائفة على طائفة أخرى فنلك هو الرذية كل الرذية والبلىة شر البلىة ، باب من أوسع أبواب الفتن ومسرر هداوة وبضام وتفرق كلمة وانحلال وإذ ذاك يفرح المتربسون ، ويحطمون من كانوا يحجمهم آمنين لذا جاء الكتاب الكريم فى هذا الأمر الجليل بما فيه اللواء الناجح ، فأوجب على جماعة المسلمين أن يسرعوا بتدخلهم إذا زرّ قرن الفتنة وبدأت مظاهر القتال

ليعملوا جاهدين على وأد الفتنة ، وحراسة القومية والبقاء على الوحدة ، فإذا ما استقام الأمر كفى الله المؤمنين مصائب الفتن ، وأن أبث إحدى الطائفتين إلا نبيا وقتلا وجب على جماعة المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلي امر ربها وتعود إلى تعاليمه الحكيمة فإذا ما قامت كان العدل من الجماعة والإقسط بين الطائفتين (وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاصلحوا بينهما فإن بثت إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى امر الله فإن قامت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، أما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) .

وحق للتدخل هو حق جماعة المسلمين وحدهم ، وهو واجب عليهم وحدهم فهم الإخوة وعليهم أن يبقوا على رابطة الإخوة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وهم الذين يرحبون بالقضاء على هذه الشرور ، وما كان لمؤمن أن يلبأ في مثل هذا الشأن إلى غير أخوته فإن الآخرين لا يألونه إلا خبالا وأحباش إلى نفوسهم ما فيه إذلالهم وتمزيق وحدتهم وتفريق كلمتهم ، فعل الباغية أن تخفي ربها وتختر بطشه ، وعلى الأخرى ألا تلجأ لغير قومها وأن تعمل بتعاليم ربها .

الرحمة

الرفق بالصنار ، وإحسان تربيتهم ، والعناية بسائر شئونهم والإشفاق على المرضى والضعفاء ، وتوفير أسباب السلامة والقوة لهم . والبر باليؤساء والمحتاجين ، وتنفيس الكرب عن المكروبين وإغاثة المظلومين ونصرتهم . وكشف السنوء عن المضطرين وإغاثة المهووفين . ورفع الحرج عن نزل بساحتهم وستر الزلات ومغفرة السيئات ، كل أولئك وأشباهاها ليست إلا ضروبا من ضروب الرحمة ، التي وقر في النفوس معناها الذي لا يفي ببيانها إلا العبارات المفصلة ، ولا يكاد يحيط به القول الجامع . والرحمة نعمة كبرى وخلة عظيمة لا غنى عنها في أي عمل من الأعمال ولا في أي وضع من أوضاع الحياة لا يستغنى عنها الفرد ولا الجماعة ولا الضعيف ولا القوى ولو أمسك الله عز قدره رحمته عن عباده ، ورفع ما بينهم من التراحم لضاعت عليهم الأرض بما رحبت ، وقست عليهم هذه الحياة أشد القسوة وكانت الجحيم المستعمر والعذاب المقيم :

والرحمة رابطة من أفضل روابط الإنسانية ، ولذا اتخذها الإسلام شعيرة من أعظم شعائره ، يذكر بها المسلم في كل حين ، ويردها على محمه وقلبه بالكتاب الكريم ، وفي صلواته وتشهده وأمره أن يدعو بها ربه ، عبادة له ، والتماس لفصله واستزادة من أنعمه ، وتضرعا إليه ليكشف عنه الضر ويلطف به فيما جرت به المقادير . والرحمة من صفات العلى القدير ، رب العالمين الرحمن الرحيم ، العزيز الرحيم ، البر الرحيم ، الثواب الرحيم الغفور الرحيم الذي كتب على نفسه الرحمة وسبقت رحمته غضبه ، ووسعت رحمته كل شيء فبرحمته توالى على عباده نعمه وإحسانه وبرحمته خفهم لطفه في كل ما عملوا وما تركوا وكان لهم في رحمة الله بهم المثل الأعلى والقودة الحسنى — والرحمة حلية من أعظم حلى الرسول الكريم ، ومن أفضل شئائله في رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا فضضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر — لقد جاءكم رسول من

أخسكم عزيز عليه ما عنتم حرص عليكم بالمؤمنين رهوف رحيم . فكان صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة ، رسالته رحمة ، وهدايته رحمة وخلقته الرحمة ، ودعوته إلى الرحمة وكان لأخيه فيه الأسوة الحسنة والقُدوة الصالحة ، التي تهاوتوا في اتباعها فكانوا كما وصفهم الكتاب الكريم : والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم .

ودين الإسلام يدعو في تأكيد إلى الرحمة ، ويرغب فيها بكل قوة ، فانه جل شأنه يقول : فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقية أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة . وروى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وغيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ، ومن لا ينفّر لا ينفّر له — وأنه عليه الصلاة والسلام قال : الراحون يرحمهم الله ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .

ودين الإسلام يدعو إلى الرحمة إلى كل المحيطات . فهو يدعو إليها ويعلن أنها في طلائع الأسباب التي دعت إلى قيام الأسرة الصالحة ، وينبه إلى أنها دعامته من أقوى دعائمها ، وأنه يريد بها خلة شاملة تقبض بها قلوب أعضاء الأسرة أجمعين : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وبالوالدين إحسانا إما يملن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهزهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » - وقيل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن ، أو الحسين ، وكان عنده الأقرع بن حابس التيمي ، فقال الأقرع ، إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا قط . فظفر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : من لا يرحم لا يرحم . وجاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنكم : قبلون الصبيان وما قبلهم . فقال له عليه الصلاة والسلام : أو أملك لك إن نزع الله الرحمة من قلبك .

وهو يدعو إلى أن تكون الرحمة رابطة ما بين الحاكمين والمحكومين

ويلمن من لم يعمل على ذلك . فقد روى عن انس بن مالك انه قال : كنا في بيت فيه ثمر من المهاجرين والأنصار فاقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل كل رجل يوسع رجاء أن يجلس إلى جنبه ، ثم قام إلى الباب فأخذ بضاديه فقال الأئمة من قريش ، ولى عليكم حق عظيم ، ولم ذلك ما فعلوا ثلاثاً ، إذا استرحوا رجوا وإذا حكموا عدلوا وإذا ما هدوا وفوا . فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والناس والملائكة أجمعين .

والإسلام يدعو إلى أن تكون الرحمة خلق المجتمع نفسه ، وخلة شاملة تخلق أحكم الروابط بين عامة أفراده ، وينبه إلى أن الإيمان التقي المتين لا بد أن يثمر هذا الخلق العظيم . فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : لن تؤمنوا حتى ترحوا . قالوا يا رسول الله كلنا رحيم . قال أنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة .

واخوة الانسانية من أقدم الروابط التي ربطت بين الناس منذ كان الناس ، وهي أيضاً من أمتن هذه الروابط وأقواها ، وعننا نشأت ووجب أن تلتصق روابط أخرى كثيرة ، وخلال كرمه ، تأتي في طلبها خلة التعاطف والتراحم ، التي لا يستغنى عنها الأفراد ولا الجماعات ، ويحتاج إليها الأقوياء كما يحتاج إليها الضعفاء قدما إليها الإسلام وجب فيها ، وسنها فريضة ورغبة ، وتقصي جميع مواقعها فتصرح لما المشاهج الرجينة التي لمع في أفعالها منهج التعاون والتكافل المسالي منذ قرون متطاولة ، أيام كان الآخرون لا يطعمون لذلك طمعاً ولا يراحمون له راحة ، وكانوا غارقين في الأثرة والجشع وفي امتصاص أموال الضعفاء وجهودهم .

قضت سنة الله في خلقه أن يكون منهم القادر ومنهم العاجز ، ومنهم القوى ومنهم الضعيف ، ومنهم العامل الجاد ومنهم الخامل الكسول ومنهم النكي ومنهم

الغني ، ومنهم الموفق المبدئ ومنهم الفاشل المخذول وهكذا تباينت أحوال النجاح وتموت أسبابه ، وتفاوتت مقاديره وكانوا في ذلك طبقات متفاوتة على وفق تفاوتهم فيها وهبوا من الأسباب وما عملوا وجدوا وكسبوا . وذلك قول الله جلّت حكمته : « إن ربك يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر » « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق » وكذلك فطر الله الناس على أن يحرسوا كل الحرص على ما كسبوا وما جمعوا ، وعلى أن تكون لهم ثمرات أعمالهم ، لا تصدوم إلا لمن يبتلون من أجلهم كما يعملون لأنفسهم ولولاهم ما كان كثير من العمل ومن الجهد والغناء ، وهم اهلوم وأولادهم الذين يخلفونهم في أموالهم وقد سارت شرعة العليم الخبير تلك السنن وهذه القطر فالأموال محفونة على مالكتها ، وثمرات الجهود مصونة لمن أراد أربابها ، وعلى كل مستطيع أن يعمل ويجد ، وآلا يقدر عن طلب الرزق حتى يكون حالة يتكفف الناس أو يسلمهم أموالهم بما أوتى من قوه وجبروت غير أنها شرعة لا تسير كل هذا إلى غير حد بل وقتت به عند الحد الذي لا جدوان فيه على حقوق الجماعة ولا إمساس فيه بما تحتاج إليه الدولة ، وعند الحد الذي لا ينهب بمقوق الضعفاء والمعجزين ، والمحتاجين . والبؤساء ، ومن نزلت بهم الكروب والشبهات . وكان لها عند ذلك ميدان فسبح لتقرير الأحكام الصالحة التي قررت حقوق الأفراد في أموال غيرهم ، والأحكام التي قررت حقوق الجماعة والدولة في أموال الأغنياء .

لقد راعت الشريعة السمحة ، الحكمة المحبكة ، ضعف الضعفاء ، وبؤس البائسين وعوز المعوزين وحاجة المحتاجين ، فقررت لمؤلاء جيماً حقوقهم في أموال الأغنياء والقادرين فقررتها على ذوى القربى ثم على غيرهم .

فللفقراء المعاجزين على ذوى قريام القادرين أن يؤدوا إليهم ما يقوم بكفائتهم في أنواع نفقاتهم كما أن لهم في أموالهم حقاً آخر وأجياً يشير إليه قوله تعالى : وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه واسكسوم وقولوا لهم قولاً مروقاً . وللفقراء والمساكين واليتامى والمحرومين حقوق كثيرة في أموال الأغنياء . فالزكاة فريضة محكمة وركن من أركان الإسلام .

كما ان هناك حقوقا واجبة اخرى سواها عند كثير من العلماء يشير إليها قوله جلّت حكته : كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده . وقوله سبحانه : وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . أما صدقة التطوع في نظرها فهي من أفضل الرغائب وقد استجاب لها المسلمون اعظم الاستجابة فأدت على مر القصور أفضل الخدمات الاجتماعية .

والزكاة قد فرضها الله جلّت حكته في أموال الأغنياء من المسلمين لئلا تزداد فقراتهم وجعلها طهرة للمتصدقين مما عساه أن يكون قد وقع منهم من اللطم حين زاولوا كسب أموالهم ، وطهرة للمتصدقين مما عساه أن يكون قد علق بها عن غير قصد ولتكون عوناً للفقراء المحتاجين والمساكين البائسين على مواجهة أعباء الحياة ، وعوناً لطالبي الحرية على تحرير رقابهم ، واتخاذاً لمن وقعوا في الشدائد لاقطاع السبيل بهم ، وإمارة . - للدينين . وفي كل هذا كف للأبصار والأطباع المحدودة ، وسل للأحقاد وغل الصدور ، وفيه وفاء بحق الإنسانية وأمن لأصحاب الأموال على أموالهم وكفالة لخير نظام تسير عليه الدولة « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها » « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »

والزكاة وكثير من أنواع العون المالي قد سماها الله سبحانه صدقة لأنها عنوان على صدق الإيمان وفرض سبحانه ما فرض وأوجب ما أوجب ورغب فيما يرغب بالمقدار الذي لا وكس فيه ولا شطط وفيه الرضا من جانب والكفاية من جانب آخر ، هذه هي تعاليم الاسلام الحكيمة ، فليسها من يشاء اشتراكية سليمة ، أو فليسها بما يشاء من الامحاء ، فليس يستينا أن نقول إلا أنها أفضل ما يكفل للجاعة وللأفراد الخير والسعادة .

التعاون

التعاون من أقوى روابط الانسانية واحكمها ، ومن افضل الوسائل إلى بلوغ الغايات وخير كفيل بتحقيق المصالح ودرء المفسد ، وهو أصل ثابت للكثير من عوامل التقدم والكمال وجماع اللوفر من أسباب الرقي والحضارة . ومتى امتدت كل يد إلى سائر الأيدي مؤازرة بلغت القوة ذروتها وأرقت الانسانية في معارج السمو الروحي واستكملت عناصر القوة المادية على سواء . وأن أثر كل امرئ أن ينطوى على نفسه ، لا ينظر إلا إلى خاصتها ولا يمد يد العون إلى غيره ، ولا يستعين بسواه ، قصرت به الوسائل ، وفسدت أموره ، واستحكم الاضطراب ، وفشا التأخر وانجرت الانسانية نفسها إلى حافة هوة سحيقة من الانحطاط والانحلال . بهذا مضت سنة الله في عباده ، فهذا قضت فطرته التي فطر الناس عليها ، وبهذا شهد ويشهد ماضي الأمم والشعوب وحاضرها . ولهذا كانت عنايه الاسلام بالتعاون أعظم عنايه ، يدعو إليه في قوة ، ويرغب فيه بأعظم المنوبة ، ويتوعد من أعرض عنه أو تهاون في أمره بالويل والحذلان بهذا نطق الكتاب الكريم في مواطن كثيرة ، وبه جاءت السنة النبوية الصحيحة ، فانه جلست حكمته يقول : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واحوا لله إن الله شديد العقاب) . أمر جل شأنه بالتعاون الشامل الجانح ، التعاون على البر وما فيه الخير الخاص ، والتعاون على التقوى وما فيه من النفع العام . ونهى جل قدره عن التعاون على ما هو قبيض لها وتهديد بالعقاب الشديد من يخالف أمره أو لم يجتنب ما نهى عنه . ومواطن التعاون والحلال التي تحقق منها في الكتاب الكريم أكثر من أن تذكر في مقاي هذا . ورسول الله ﷺ يقول : المؤمن للمؤمن كالبنيان يعض بعضه بعضا . ويقول ﷺ :

المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يؤذنه ، أى لا يبيعه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته . ومن فرج عن مسلم كربة ففرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة .

وروى مسلم وغيره أنه عليه السلام قال : من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على مصسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله عليه وسلم قال : ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من جوارح الناس إليه فתרجم فقد عرض تلك النعمة للزوال — وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أى الناس أحب إلى الله ؟ فقال أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس ، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم . تكشف عنه كربة ، أو تقضى عنه ديناً ، أو تطرد عنه خَوْفاً . ولأن أمشي مع أخ فى حاجة أحب إلى من اعتكف فى هذا المسجد شهراً . ومن بكم غيظه ، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا . ومن مضى مع أخيه فى حاجته حتى يقضى له ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام وروى أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أمان عبداً فى حاجته ثبت الله مقامه يوم تزل الأقدام .

هذه هى مكانة التعاون على الخير فى النظرة الإسلامية ، أmaal التعاون على الإثم والمدون فى أى بيئة وفى أى محيط فهو من أعظم الجرائم والكبر الكبائر ، به تنتهك الحرمات ، وتسلب الحقوق ، ويروغ الأمنون ويستعبد الأحرار ، وتذهب ربح الأمن ويستترى الرعب والفساد . فما هو إلا شر مستطير وممول هدم ودمار وخراب .

والتعاون الصالح ، التعاون على الخير الخامس فى مختلف البيئات والتعاون على الخير العام فى مختلف المحيطات ، لا يحقق أهدافه ولا يؤتي أكله ، إلا إذا بحث

نيات المتعاونين ، وكان صادراً عن رغبة صادقة تدفع إلى العمل الجاد في قوة وإخلاص . أما إذا شابه الرياء والتفاق ، أو تحسكت فيه النزعات الفردية والمصالح الشخصية ، أو لو تته عوارض الحياة . أو الإهمال ، أو النسي والتأخر ، أو كان صادراً عن إكراه أو تورط ومجاملة ، فلا مصير له في جميع هذه الأحوال إلا الفشل التريخ وكثيراً ما يكون أنعمة أكبر من نفعه .

والتعاون الصالح يكون في اضيق البيئات ويكون في اوسع المحيطات ، يكون بين رب الأسرة وأهله وولده ، ويكون بين الأسرة الجامعة وإن تباعدت القرابات ، ويكون بين الشركاء في التجارة أو في الصناعة أو في الزراعة أو أي مهنة أخرى أو عمل آخر ، ويكون بين أهل القرية ويكون بين أهل المدينة أو الولاية ، ويكون بين أفراد الأمة جميعاً ، ويكون بين الراعي ورعيته ، ويكون بين مجموعة معينة من الدول . وقد يكون بين جميع الدول . والتعاون في كل من هذه المحيطات له وسائله الخاصة التي تلائم كيانه وتحقق مصالحه على وضع لا يمارض مع مصالح المحيطات الأخرى بل يسايرها وقد واجه التشريع الاسلامي جميع هذه الأحوال وشرع لها أفضل الأحكام وسن لها خير التعاليم .

تعاون الاسرة

التعاون من أقوى دعام الحياة الاجتماعية السليمة الكاملة ، بل هو أمتها وأقواها فمثل الجماعة إلا مثل الجسد الواحد له أعضاء كثيرة الظاهرة والباطنة متفاوتة المسكة والمراتب ولكل عضو منها وظيفة وأعماله التي هي لها ولا يحسن سواء أداءها ، ولا غنى عنها بحال مهما بدأ شأنها صغيراً . فإذا اتظم هذا الجهاز وحسن سيره في عمله فأدى كل وظيفة وأخلص في القيام بما هو واجب عليه ، واستتحت من عداه ليؤدي أعماله وواجباته وبادر إلى موته ما استطاع فيما يعجز أو يقصر عن الوفاء به ، استقام أمر هذه الجماعة وأسرع خطاها إلى أعلى مراتب القوة والعزة والكمال . وماذا خير ذلك كله إلى الجماعة وإلى كل فرد منها على سواء . أما إذا فشا في أي مجتمع إهمال الفرد القيام بوظيفته أو قصيره في أداء ما هو واجب عليه لجماعته وسائر أعضائها ، وسادت الاثرة وقال كل : نفسي نفسي مالى ولتبتون غيرى ، اختل نظام هذا المجتمع واضطربت اموره ، وقطعت روابطه بنهاب ريح التعاون بين افراده ، واسرع بخطى واهمة إلى مهاوى الضعف والقلة والمهوان ، واصابت شروور ذلك الجماعة والأفراد على السواء ولقد حرص الاسلام وحرصت تعاليمه على تربية النفوس في كل المحيطات ومختلف البيئات على الايمان بالتعاون والتفاني في حبه ، وإدراك ان من يعمل الخير الجماعة ليس الا ملاما لخير نفسه ، وضربت لذلك الأمثال التي رويت منها الحظ الوافر فيما سلف ، حتى يكون التعاون صادراً من عقيدة راسخة ، وبوازع نفسى روحى ، ولا تنوبه شائبة من رياء ولا تردد . فذلك هو التعاون الصادق المثمر الذى يفيض خيره على الجميع ، وإذا سنه أولوا الأمر أو دماله غيرهم سارع المؤمنون في الاستجابة إلى ما يدعوا اليه ، فانه عقيدة من عقائدهم وشعبة من شعب إيمانهم .

والأسر الصغيرة - أسر الأزواج والوالدين والولد ومن بهم - هي الخلايا العامة الناصبة وهي البنات التي يقوم بها بناء مجتمعنا ، ففي صلاح امورها صلاح اموره ، وفي اختلال شئونها اختلال شئونه ، ولاصلاح لامورها الا بالتعاون الصادق الثمر فيها بين اعضائها ، يؤدي كل منهم ما لها عليه من الواجبات ، ويستوفي كل منهم ما له فيها من الحق في قصد واعتدال ، ويسود في ناديهم الايثار والرحمة والمودة ، ويسملون جاهدين على ان يجنبوا عجمهم الصغير الآفات التي تصيب تعاونهم فتقضى عليه أو تورثه المزال والمرض العضال . وذلك ما أنجحت إليه التعاليم الاسلامية الرشيدة مساندة لما تمليه الفطرة الالهية وحكمة العقول المتدبرة ومنطق المصالح وواجهت ذلك جملة وتفصيلا .

فالقرآن الكريم يرشدنا الى أن أساس الأسرة وبه تكوينها ، هو الرابطة المقدسة ، رابطة الزوجية ما شرعه جلت حكمته إلا لتكون وسيلة الى التعاون ، والتعاون على حفظ النوع والتناسل وتربية الولد ، والتعاون على مواجهة أعباء الحياة داخل البيت وخارجه في سكن والطبخان وود متبادل ورحمة من الجانبين ، ومراعاة لهذا المعنى الاجتماعي النبيل عرف كثير من الفقهاء الزواج بأنه عقد شركة بين الزوجين وما هذه الشركة إلا شركة تعاون من الطرفين وما قامت إلا من أجل هذا التعاون . (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

ولم تحف هذه التعاليم الرشيدة عند هذا المعنى الجامع بل وتغلقت في كيان الأسرة وكل أمورها من الناحية المادية ، ومن ناحية الآداب ومكارم الأخلاق ومن سائر النواحي الدينية والروحية والاجتماعية ، فبينت الحقوق والواجبات فيها بين أعضاء الأسرة أدق بيان يكفل التمايز والوضوح ، ويقضي على الاشتباه ، ويجعل بينهم وبين البغي والطفيان ، وفصلت الأحكام المحكمة ، التي أنجحت أول ما أنجحت إلى خلق التعاون وإقراره وتثبيت دعائمه في بناء الأسرة الصغيرة ، وحل كل من أهلها على ان يهيئ للآخرين الجو الصالح الذي يمكنهم من القيام بواجباتهم ومن الوفاء بما عليهم لهذه الأسرة من الحقوق ، وحلتهم أيضا على ان يقدم بوعونه على ذلك ما استطاع اليه سبيلا ومن قصي هذه الأحكام وتدبرها أيقن بأنها ما شرعت

إلا لبث التعاون في الأسرة لا فرقاً بين الصغير والكبير ولا بين الذكر والأنثى وقد حملت هذه التعاليم جانحة على تحسين التعاون في الأسرة ووقايتها مما يصيبه من الآفات المتنوعة ، وهي آفات كثيرة منها إهمال الرجل لأسرته وتضييع أهله وولده وكفى بالمرء إثمًا أن يضييع من يول ، وإهمال المرأة لبيت زوجها وولده وهي راعية في بيته وكل راعٍ مسئول عن رعيته . ومنها الفيرة العارمة المقرطة التي لا مبرر لها ، والفيرة الظالمة التي لا تمليها إلا شكوك وأوهام لا قرار لها ، وإن من الفيرة غيرة يفتن بها الله ورسوله . ومنها أن يسلك رب الأسرة لو ربتها مسالك الرقيب ، فيكون أسوأ قدوة ، ويكون مسلكه باعثاً للتناحر والشقاق والانحلال . من سلك مسالك الرب اثم ولا أجر له . ومنها ظهور الأثرة بين أعضاء الأسرة . فلا ثمرة لهذه الخلة المقيتة إلا التباغض والتدابير وإزهاق روح التعاون . ومنها جور الوالد والوالدة فيما يمتنع للولد من الأموال أو فيما يسبغانه عليهم من الرعاية والإقبال ، فليس من وراء ذلك إلا التفتير والتحاسد وتقطيع الأرحام . فهذه الآفات وأشباهها قد واجهها التشريع الإلهي وسن لها خير وقاية وأفضل علاج .

وبعد فتعاون الأسرة هز عنصر حياتها الرئيسي ولن يؤدي وظيفته إلا إذا كان صادراً عن إيمان وعقيدة وكان مصدره الوازع الديني .



هيئة قناة السويس

معسكر الشباب بالاسماعيلية

افتتح في أوائل شهر يوليو ١٩٥٩ معسكر للشباب على بعد خمسة كيلومترات من مدينة الاسماعيلية لاشراك الشباب العربي في عمليات توسيع القناة .

ويقوم المتطوعون بالعمل في القناة على أفواج يتألف كل منها من ٤٠٠ شاب بحيث يعمل كل فوج لمدة ١٢ يوماً ثم يترك العمل للفوج الذي يليه .

يبدأ البرنامج اليومي للمتطوعين في الخامسة صباحاً بتمريشات رياضية ينفذها تناول الافطار فالعمل في توسيع القناة لمدة أربع ساعات . وبعد الغذاء يتأنف العمل ، عقب فترة الراحة ، لمدة ساعتين . من الرابعة إلى السادسة مساء .

وفي المساء يبدأ النشاط الثقافي الذي يشمل محاضرات عن تاريخ القناة واثرها في الاقتصاد العالمي ثم احاديث عن الفنون البحرية واخرى عن القومية العربية ومشروعات الثورة .

ولا تقتصر مهمة الشباب على القيام بأعمال الحفر ونقل الرمال فحسب بل هناك مهمة اخرى لا تقل اهمية عن تلك ، وهي إزالة اكوام الرمال من المنحنيات على شاطئ القناة لتتمكن السفن من الرؤية على مسافات بعيدة بدلاً من ان تعجب هذه التلال المناطقة التي خلفها ، فتستطيع ان تسير في طريقها الطبيعي دون ان تضطر إلى البطء خشية الاصطدام في المنحنيات .

وقد عينت هيئة قناة السويس ضابط اتصال لتنسيق العمل مع مدير المعسكر والرواد وقواد الفرق كما انها تتحمل نقل الطعام والترفيه عن المتطوعين .



١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥